أعلام العرب

٧٠

عبد العزيز بن مروان

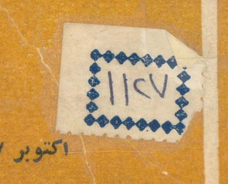
بقلم

الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الاسلامى - كلية البنات جامعة عين شمس



وزارة الثقافة
دار
الكاتب
العربى
للطباعة
والنشر



اكتوبر ١٩٦٧

أعلام العرب

٧٠

٢٦ أغسطس ١٩٧٣

عبد العزيز بن مروان

بقلم

الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الإسلامي
كلية البنات جامعة عين شمس

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مقدمة

نشأ عبد العزيز بن مروان وترعرع فى بيت من أعرق بيوتات قريش ، وشب فى الأرض التى بزغ فيها نور الاسلام ، وشع منها على العالم أجمع فجر الحضارة الاسلامية . وأتيح لعبد العزيز بن مروان أن يتولى امارة مصر فى السنوات الاولى من دخول العرب والاسلام فيها . وقد ولى عبد العزيز مصر نائبا عن الخلافة الأموية العربية حين كان مقرها دمشق وحين كان خليفة المسلمين أباه مروان بن الحكم ثم أخاه عبد الملك بن مروان . وحكم عبد العزيز مصر عشرين سنة وعشرة « شهور » وبضعة أيام على ما رواه مؤرخ مصر ، الكندى ، صاحب « ولاة مصر وقضاتها » . ولم يل مصر فى عصر الولاة ، أى منذ أن دخلها العرب فاتحين محررين لها من البيزنطيين الى أن استقل بها أحمد بن طولون ، أحد أطول ولاية منه . ولم تكن مهمة عبد العزيز سهلة فى بلد أخذ يفتح عينيه على العروبة والاسلام وأخذ يندمج فى مجموعة الشعوب العربية بل ان هذا المصر أصبح قاعدة

لانتشار العروبة والاسلام فى شمال افريقية ومن بعدها فى الاندلس ٠ وكان رائد العرب فى ذلك الحين تلك العبارة التى طالما رددتها الروايات التاريخية القديمة وهى « نحن قوم الموت أحب الينا من الحياة » فكان الاستشهاد فى سبيل الله هو أمل كل عربى والنصر هو غايته ٠ وكان عبد العزيز بن مروان دعامة قوية من دعائم البيت الأموى بصفة عامة ومن دعائم الفرع المروانى من بنى أمية بصفة خاصة فكان يحكم مصر وما يتبعها من بلاد وأقاليم فى شمالى افريقية كأنه أمير مستقل أو ملك غير متوج لا يكاد يكون للخلافة أى سلطان عليه ٠ والحق أن الخلافة كانت مطمئنة الى الحكم والادارة فى مصر وغربى العالم الاسلامى حين كان يحكمها عبد العزيز ٠ ولا غرو فان أسرة مروان كانت تمثل الأسرة العربية الصميمة التى عرفناها قبل ظهور الاسلام ، تلك الأسرة التى يناصرها أبناؤها ويشترك أفرادها فى كل الأعمال والأمور الخطيرة ٠

وعبدالعزيز بنمروان ابن خليفة وهو مروان بن الحكم وأخو خليفة هو عبد الملك بن مروان ووالد خليفة قدر له أن يكون من أشهر خلفاء الأمويين على الاطلاق وأكثرهم ورعا وعدلا وهو عمر بن عبد العزيز ، كما أنه عم الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، ويزيد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، وهو جد لبقية الخلفاء الأمويين فى المشرق وجد للأمراء والخلفاء الأمويين فى الاندلس ٠ ولم يكن عبد العزيز ابن مروان أخا للخليفة عبد الملك فحسب وانما كان وليا لعهده ٠ ولم يغفل معاصروه ما كان له من سلطان واسع عريض فى حكم مصر وغربى العالم

الاسلامى حتى انه فى شعر أحد الشعراء المعاصرين له وهو ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ابن أبىمعيط حين يرثى عبد العزيز بعد وفاته ووفاة ابنه الأصبغ نجده يلقب عبد العزيز بلقب خليفة فيقول :

أبعد الخليفة عبد العزيز
وبعد الأمير كذا وابقه

فما مصر لىبعد عبدالعزيز
ولأصبغ الخير بالمؤنقه (١)

ولعل أهل مصر جميعا كانوا يلقبون عبد العزيز بلقب «خليفة» لأنهم لا يعرفون خليفة غيره كما كان أهل الشام لا يعرفون خليفة غير معاوية بن أبى سفيان حين كان أميرا عليها قبل توليته خلافة المسلمين .

وبعد فان تاريخ مصر فى الفترة التى حكم فيها عبد العزيز بن مروان هو تاريخ عبد العزيز نفسه وسيتعرف القارىء من فصول هذا الكتاب على سيرة عبد العزيز قبل مجيئه الى مصر ثم سيرته وحكومته فى مصرنا العزيزة فى أوائل عهدها بالعروبة والاسلام .

دكتورة
سيدة اسماعيل كاشف
أستاذة التاريخ الاسلامى
كلية البنات ــ جامعة عين شمس

٤ من ذى القعدة سنة ١٣٨٥ هـ
٢٤ من فبراير سنة ١٩٦٦ م

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٥ ــ ٥٦ (طبعة جست ــ بيروت ١٩٠٨)

الفصل الأول

نشأة عبد العزيز بن مروان وأسرته

١ ـ قصور الترجمة .

٢ ـ أجداد وآباء .

٣ ـ الأب .

٤ ـ مولد عبد العزيز بن مروان وتأدبه .

٥ ـ الأم والخال

٦ ـ الاخوة .

١ ـ قصور الترجمة

لا يظهر اسم عبد العزيز بن مروان فى الصورة التاريخية ظهورا واضحا وذلك لأن العناية بالتراجم كانت منصبة على الملوك لا الأمراء بل انه فى هذه الفترة بالذات لم يلق تاريخ الخلفاء الأمويين ونشأتهم الأولى عناية كبيرة من المؤرخين والرواة • فالتاريخ الأموى كتب بوجه عام فى ظل أسرة معادية لبنى أمية ، والمعروف أن الكتب القديمة التى لدينا دونت وكتبت فى العصر العباسى ، أو فى ظل الدول والدويلات التى تفرعت عن الخلافة العباسية • وكما نال التقصير تاريخ العصر الأموى ، أدرك هذا التقصير سير خلفائهم وسير أمرائهم •

ولعل السبب فى ذلك أيضا أن بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة الصلة بالحديث والسنة فركز المؤرخون المسلمون الأول اهتمامهم فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وفى أفعاله وغزواته وحياته الخاصة • والمعروف أن أقدم الكتب التاريخية التى تجمع بين الحديث والتاريخ هى كتب المغازى والسير •

ولعل الفتنة الكبرى والأولى فى الاسلام التى بدأت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان وانتهت بتولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة وتأسيسه للدولة الأموية ، ثم ما انتاب المسلمين من تفرق ونزاع عقب وفاة معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد ، لعل تلك الفترات العصيبة وما وقع فيها من أحداث جسيمة لم يترك مجالا كبيرا للرواة

والمؤرخين كي يتحدثوا عن الخلفاء والأمراء وعن نشـأتهم وتأدبهم وسيرهم وحياتهم الخاصة بافاضة واهتمام .

ولهذا سوف لا ندهش اذا علمنا أننا نكاد لا نعثر على شيء ذى بال يختص بمولد عبد العزيز بن مروان ونشـأته وتأدبه وحياته الخاصة والعامة ، هذا مع رفعة نسـبه وعلو شأنه وحـكمه لمصر وغربى العالم الاسلامى حكما كاد يكون مستقلا عن الخلافة حينئذ .

٢ ـ أجداد وآباء :

ينتسب عبد العزيز بن مروان الى بنى عبد مناف بن قصى الجد الخامس للرسول عليه الصلاة والسلام وزعيم قريش الذى أسس مجدها ، وهو ابن الخليفة مروان بن الحكم ، وهو قريب عثمان ابن عفان ثالث الخلفاء الراشدين ، كما أنه من أبناء عمومة معاوية ابن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية ٠

وعبد العزيز قرشى من صفوة قريش فهو ينتسب الى أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف وفى عبد مناف يجتمع نسب عبد العزيز مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ فالرسول الكريم يتصل نسبه بهاشم بن عبد مناف أما أمية فهو ابن عبدشمس بن عبدمناف أى أن عبد مناف أبو الهاشميين والأمويين٠ وكان لأمية جد الأمويين ولدان هما حرب وأبو العاص ، وينتسب معاوية بن أبى سفيان مؤسس الخلافة الأموية الى حرب فأبوسفيان هو ابن حرب بن أمية ٠ أما عبد العزيز فينتسب الى أبى العاص فهو ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ٠ ويلتقى عبد العزيز ابن مروان مع ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان فى أبى العاص ، فالخليفة عثمان هو ابن عفان بن أبى العاص ابن أمية ، وكان الحكم جد عبد العزيز أخا لعفان وعما لعثمان ٠

وكان حرب أكبر من أخيه أبى العاص ، وكانت له السيادة والرياسة فى العصر الجاهلى ثم انتقلت من بعده الى ابنه أبى سفيان ٠ وحين ظهر الاسلام ارتفع ذكر بنى أبى العاص وذلك لأن عثمان بن عفان كان من السابقين الى الاسلام فصحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم وآمن بدعوته وجاهد معه وهاجر الى الحبشة ثم الى المدينة وتزوج رقية بنت الرسول فلما توفيت تزوج أختها أم كلثوم ولهذا كان يلقب بذى النورين • ولكن بعد أن ظهر معاوية وأسس الخلافة الأموية عادت السيادة لبنى حرب بن أمية • ومالبث فرع أبى العاص أن علا ذكره بتولى مروان بن الحكم خلافة العرب اذ ظلت الخلافة الأموية فى بنى مروان • وحين انتهت خلافة الأمويين فى المشرق على يد بنى العباس ، نراها بعثت من جديد فى الأندلس على يد أحفاد مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية • واشتهر أبو العاص فى الجاهلية ببسالته وشجاعته فى حرب الفجار التى وقعت فى الأشهر الحرم بين قبائل من عرب الحجاز ، وقد شهدها النبى صلى الله عليه وسلم قبل بعثته بنحو ستة وعشرين عاما •

أما الحكم بن أبى العاص فهو من القرشيين الذين أسلموا يوم فتح مكة ، ولسبب لا نعرفه على وجه التحديد أمر الرسول الكريم بابعاده الى الطائف ، ثم رده بعد قليل الى مكة • وبقى الحكم مع أسرته فى مكة حتى ولى عثمان بن عفان الخلافة فاستدعاه وأسرته الى المدينة مقر الخلافة حينئذ • وقضى الحكم بقية حياته فى هدوء ودعة الى أن توفى زمن خلافة عثمان بن عفان •

٣ ـ الأب ٠

أما مروان والد عبد العزيز فقد ولد فى مكة بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحين أسلم أبوه فى عام الفتح كان فى نحو الثامنة من عمره وقضى مع أبيه فترة فى الطائف ثم عاد الى مكة ٠ وشهد فى صباه عظمة الاسلام وعزة العرب وتفوقهم على جيوش كسرى وقيصر وان كان صغيرا لم يشترك فى هذه الحروب ، لكنه حين أصبح شابا اشترك فى بعض الفتوح فى صدر خلافة عثمان ٠ وكان فى نحو الخامسة والعشرين من عمره حين ذهب الى المدينة مع أبيه وأسرته فى خلافة عثمان ٠ وفى المدينة تلقى علومه الدينية والفقهية فكان يتصل بالصحابة والتابعين ، وعد مروان فى الطبقة الأولى من التابعين ٠ وفى المدينة تعلم مروان الدرس الأول فى السياسة والادارة اذ عينه عثمان أحد كتابه وما لبث أن أصبح رئيسا لديوان رسائل الخليفة وصار بمثابة كاتم سر دولته ٠ ولعل أهم حادث شهده مروان فى شبابه هو الثورة ضد عثمان بن عفان وتصدع وحدة المسلمين والعرب ، والدولة لا تزال فى عنفوانها ، ثم ما كان من مقتل عثمان نفسه ، بل ان اسم مروان بدا فى تلك الثورة بوصفه كاتبا للخليفة ، اذ زعم الثوار الذين خرجوا من مصر أنهم ضبطوا كتابا بتوقيع الخليفة الى عامله على مصر يأمره فيه بقتل الثوار ،وذلك حين كانوا فى طريق عودتهم الى مصر بعد أن اتفقوا مع الخليفة على عزل واليه عليها ٠ ولما عاد هؤلاء الثوار الى المدينة ومعهم الكتاب حلف لهم الخليفة بأنه لم يبعث به ، فطلب اليه الثوار أن يسلم اليهم كاتبه مروان فأبى الخليفة وحلف مروان هو

الآخر أنه لم يكتبه • ودافع مروان دفاعا مجيدا عن عثمان ولكن انتهت الثورة بمقتل الخليفة عثمان بن عفان فى سنة ٣٥ هـ • وخرج مروان بعد مقتل عثمان مع السيدة عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ومع من خرج معها الى العراق ليطالب بدم عثمان ، ابن عمه وعميد أسرته ، وقاتل فى الموقعة التى عرفت باسم موقعة الجمل فى ظاهر البصرة • وظهرت شجاعة وفروسية مروان فى تلك الموقعة وأخذ يدافع عن السيدة عائشة وكان كلما وثب رجل الى الجمل الذى تركبه السيدة عائشة ضربه بالسيف وقطع يده حتى قطع نحو عشرين يدا • ولكن الهزيمة لحقت بأصحاب السيدة عائشة على يد على بن أبى طالب ، خليفة المسلمين حينئذ ، الذى عز عليه أن تتمزق وحدة العرب والمسلمين ، والذى نصح المطالبين بدم عثمان قبل موقعة الجمل بالتريث حتى اذا هدأت النفوس وعاد الأمن الى نصابه ، أجرى الحق مجراه وتمكن من انزال الجزاء بقتلة عثمان •

وبعد أن انتهت موقعة الجمل فى سنة ٣٦ هـ طلب مروان ابن الحكم الأمان من على فأعطاه اياه ، وبعد ما بايع مروان عليا بالخلافة وعاد الى المدينة ليعيش فيها بعيدا عن الأحداث السياسية حينئذ لم يشترك مروان فى الحرب والنزاع بين على ومعاوية ، ولم يخرج مروان لمبايعة معاوية بالخلافة ، وظل مروان محتفظا بالعلاقة الطيبة مع آل على ومع آل سفيان ، بل مع بنى هاشم وبنى أمية جميعا • ولعل معاوية بن أبى سفيان أراد أن يفيد من علاقة مروان الطيبة بالجميع ، ومن سياسته وحنكته فعينه واليا على المدينة فى سنة ٤٢ هـ ، ولبث واليا عليها حتى عزل فى آخر عهد معاوية •

٤ ـ مولد عبد العزيز بن مروان وتأدبه ٠

لا تذكر المراجع التاريخية التى بين أيدينا متى ولد عبد العزيز بن مروان ولا كم كان عمره حين توفى ٠ أما عن سنة الوفاة فيذكر الطبرى أن عبد العزيز بن مروان توفى فى جمادى الأولى من سنة ٨٥ هـ (١) أما الكندى وهو مؤرخ ولاة مصر فيذكر أن وفاة عبد العزيز بن مروان كانت فى جمادى الاولى من سنة ٨٦ هـ (٢) ونحن نرجح قول الكندى على الطبرى لأن الكندى أكثر ثقة فى تاريخ مصر الاسلامية وهو مؤرخ مصر الاسلامية ، أما الطبرى فان عنايته تتجه الى العراق وايران أكثر من الشام ومصر ٠ أى أن وفاة عبد العزيز بن مروان كانت فى نفس السنة التى توفى فيها عبد الملك بن مروان ذلك أن عبد الملك توفى فى النصف من شوال سنة ٨٦ هـ أى أن عبد العزيز بن مروان توفى قبل وفاة أخيه الخليفة بنحو خمسة أشهر ٠ والذى لا شك فيه أن عبد الملك بن مروان كان أكبر أولاد مروان بن الحكم وكان مروان يكنى أبا عبد الملك ٠ أما عبد العزيز فانه كان أصغر من عبد الملك ولكن أغلب الظن أنه لم يكن أصغر منه الا قليلا وأن سنهما كانت متقاربة ويرجح قولنا هذا ان مروان بن الحكم أخذ البيعة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز مع كثرة أولاده ٠ كذلك يتضح من النصوص التاريخية المختلفة أن الخليفة عبد الملك كان دائما مع

---

(١) انظر : الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٥٣ ـ ٥٤ ، الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية المصرية)

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٥

جبروته وسلطانه ، يعمل حسابا لأخيه عبد العزيز • كذلك يذكر الطبرى أن الخليفة عبد الملك حين أراد خلع عبد العزيز من ولاية العهد كتب اليه عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين انى واياك قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك الا كان بقاؤه قليلا ، وانى لا أدرى ولا تدرى أينا يأتيه الموت فان رأيت ألا تغثث على بقية عمرى فافعل » • (١)

ونستخلص من ذلك أن عبد العزيز بن مروان عاش مايقرب من ستين سنة أما أخوه الخليفة عبد الملك فتذكر الروايات أنه عاش ستين سنة أو اثنتين وستين أو ثلاثا وستين • واذا كنا نرجح أن مولد الخليفة عبد الملك كان فى أوائل خلافة عثمان فى المدينة أى فى سنة ٢٤ هـ أو ٢٦ هـ على ما تذكر الروايات التاريخية فالغالب أن عبد العزيز ولد فى المدينة فى أوائل خلافة عثمان أيضا حيث كان يقيم والده مروان بن الحكم •

أما عن تأدب عبد العزيز بن مروان وثقافته قبل أن يأتى الى مصر فلا بد أنها كانت ثقافة عربية اسلامية كتلك التى كان يتلقاها أبناء قريش آنذاك وغيرهم من أبناء البيوتات الكريمة • ولا شك أن أباه مروان بن الحكم عنى بتربيته تربية عربية اسلامية مثلما كان يعنى بأخيه عبد الملك وبسائر أبنائه •

وكان مروان بن الحكم المعلم الأول لأبنائه فقد نشأ نشأة اسلامية منذ طفولته وفتح عينيه على عظمة الدولة العربية ومجدها وترسم خطى عمر بن الخطاب فى شبابه ثم تتلمذ فى رجولته على ابن عمه عثمان بن عفان الذى اشتهر بتقواه وورعه وعمله بأحكام الدين الحنيف • واعتبر مروان من الطبقة الأولى من التابعين ولا غرو فقد بقى مروان بن الحكم وأسرته بالمدينة مدة أربعين سنة من سنة ٢٤ هـ الى ٦٤ هـ لم يبرحها الا لرحلات وسفرات مؤقتة• وأتاح له وجوده بالمدينة فرصة واسعة كى يتعلم علوم الدين

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٥٤

ويتفقه فيها اذ كان على مقـربة من الصحابة والتابعين وأولهم ابن عمه عثمان بن عفان ثم زيد بن ثابت الذى كتب للرسول عليـه الصلاة والسلام ما يمليه عليه الوحى والذى كان مستشارا لعثمان ابن عفان ورئيسا لديوانه ٠

والحق أن المدينة عاصمة الخلافة الاسلامية حتى أوائل خلافة على بن أبى طالب كانت مدرسة لعلوم العـربية وللفقه الاسـلامى ومدرسة للسياسة والادارة العربية ٠ وعرف مروان بفصاحتـه والمامه بالثقافة العربية كما كان يفخر بمعرفته بأحـكام الدين وفقه والمامه بالقـرآن الكريم فكان يقـول : « ما أخللت بالقرآن قط » ٠ والمعروف أن مروان كان كاتبا لعثمان بن عفان وما زال يرقى وينال الحظوة عنده حتى أصبح كاتم سر دولته ورئيس ديوان رسائله ٠

ولا شك أن ثقافة مروان بن الحكم تعطينا صورة لما كانت عليه ثقافة أبنائه بعد ذلك ٠

٥ ـ الأم والخال

لم يكن عبد العزيز بن مروان قرشي الأب والأم كما كان أخوه الخليفة عبد الملك بن مروان ، وانما كان يجمع بين الفرعين الكبيرين لعرب شبه الجزيرة وهما عرب الشمال وعرب الجنوب فأبوه قرشي من عرب الشمال . أما أمه فكانت من قبيلة كلب التى تعد من أشهر قبائل عرب الجنوب أو العرب اليمنية . وأمه هى ليلى بنت زبان بن الأصبغ بن عمرو بن ثعلبة بن الحارث بن حصن بن ضمضم بن عدى بن جناب بن كلب وهذا النسب يوجد فى كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم الاندلسى وان كان هناك اختلاف « بسيط » حول اسم جده لأمه وهو « الأصبغ » اذ يسميه الزبيرى صاحب كتاب نسب قريش « الأصغر » (١) ونحن نرجح اسم « الاصبغ » الذى يوجد فى جمهرة أنساب العرب اذ سنرى عبد العزيز بن مروان يسمى ابنه الاكبر الأصبغ ، أما كنية الأصبغ ابن عبد العزيز فكانت أبا زبان (٢) .

واشتهر عبد العزيز بن مروان باسم ابن ليلى ، ونرى الشاعر القرشي عبيد الله بن قيس الرقيات حين يمدحه يقول :

---

(١) ابن حزم الاندلس : جمهرة أنساب العرب . ص ٨٠ (دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٤٨ نشر ليفى بروفنسال) ، ابو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب بن ثابت بن عبد اللهبن الزبير بن العوام : كتاب نسب قريش ج ٥ ص ١٦٠ (دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٥٣ ـ نشر ليفى بروفنسال)

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٦

ذاك ابن ليلى عبد العزيز ببا
ب اليون (١) تغدو جفانه رذما (٢)

وحين يرثيه وابنه أحد الشعراء المعاصرين له واسمه نصيب يقول :

بكيت ابن ليلى وابنه ورأيتنى
أحق الألى أمسوا نعى ببكاهما

هما أخواى الصالحان تواليا
بحمد فهذا للفراق اخاهما (٣)

والحق أن الدولة الأموية كانت دولة عربية فى أساسها ، وقد واصل الأمويون تقاليد القبائل العربية ما دامت لا تتعارض والدين الحنيف ٠ والمعروف أنه كان للمرأة العربية منذ العصر الجاهلى مكانة لا ترقى الى مكانة الرجل ولكنها كانت أرقى من مكانة المرأة فى معظم المجتمعات فى الشرق والغرب حتى الى نهاية العصور الوسطى ٠ فانها ـ على الرغم من سيادة الرجل وتعدد الزوجات ـ كانت تنعم بقسط كبير من الحرية وتملك حق اختيار زوجها وهجره ، وقد نبغ عدد من النساء فى ميدان السياسة والأدب ٠ ولما ظهر الاسلام كان للمرأة العربية نصيب كبير فى تعضيد الاسلام ونصرته وشاركت المرأة فى كثير من مهام الامور ولذلك كان الرجل العربى يفخر بنسبه لأمه كما يفخر بنسبه لأبيه ولم يكن هذا جديدا فى الاسلام وانما كان استمرارا لما هو معروف بين القبائل العربية قبل الاسلام ٠ ولهذا لا نعجب اذا رأينا عبد العزيز بن مروان ينسب الى أمه كما ينسب الى أبيه ٠

---

(١) يقصد بكلمة باب اليون حصن بابليون أو قصر الشمع حيث اختط العرب شماله الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية العربية

(٢) الطبرى : تاريخ : ج ٧ ص ١٧٨

(٣) الكندى : الولاة والقضاة : ص ٥٧

وكان عبد العزيز بن مروان يعتز بقبيلة أمه كما يعتز بقبيلة أبيه . ونعرف أنه حين خرج عمرو الاشدق بن سعيد بن العاص على ابن خاله عبد الملك بن مروان واضطر عبد الملك أن يقتله أراد الانتقام من بعض الذين عاونوا عمرو بن سعيد . وكان من بين هؤلاء عامر بن الاسود الكلبى فأحضره الخليفة وضرب رأسه بقضيب خيزران كان معه ثم قال له معاتبا :

« أتقاتلنى مع عمرو وتكون معه على !! قال : نعم لأن عمرا أكرمنى وأهنتنى ، وأدنانى وأقصيتنى ، وقربنى وأبعدتنى ، وأحسن الى وأسأت الى فكنت معه عليك » ولما سمع الخليفة عبد الملك من الكلبى هذا الكلام أمر به أن يقتل ولكن عبد العزيز بن مروان هب مدافعا عن خاله الكلبى وقال : « أذكرك الله يا أمير المؤمنين فى خالى فوهبه له » (١) .

---

(١) الطبرى : تاريخ ج ٧ ص ١٧٩

٦ ـ الاخوة :

كان لعبد العزيز بن مروان اخوة وأخوات قدرتهم كتب الأنساب بأحد عشر رجلا وامرأة • ولم يكن كل هؤلاء الاخوة من أم واحدة اذ تزوج مروان بن الحكم وتسرى بعدة نساء شأنه فى ذلك شأن المألوف عند العرب حينئذ • وكان أشهر اخوة عبد العزيز الخليفة عبد الملك بن مروان الذى ولى خلافة العالم الاسلامى من سنة ٦٥ هـ الى ٨٦ هـ (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) والذى يعتبر المؤسس الثانى للدولة الأموية بعد معاوية بن أبى سفيان مؤسسها الأول • اذ استطاع عبد الملك أن يعيد للدولة العربية وحدتها بعد أن كادت تتصدع كما بدأ حركة تعريب الدواوين فى البلاد المفتوحة • كذلك كان لعبد الملك الفضل الاول فى اصلاح السكة والنقود وتوحيدها فى أنحاء الدولة العربية والاستغناء عن النقود الاجنبية • وعبد الملك كان من أم غير أم عبد العزيز كما ذكرنا قبل ذلك • وكما اشتهر عبد العزيز باسم ابن ليلى عرف عبد الملك باسم ابن عائشة • وعائشة أم عبد الملك كانت بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص ابن أمية أى أنها كانت قرشية أموية وكانت من بنات عم مروان بن الحكم •

وكان يضرب بعائشة أم عبد الملك المثل فى الخصال الحميدة والصفات الكريمة وفيها يقول الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات :

أنت ابن عائشة التى ـــ فضلت أروم نسائها

لم تلتفت للداتها ـــ ومضت على غلوائها

ولدت أغر مبـــاركا كالشمس وسط سـمائها

وممن اشتهر من اخوة عبد العزيز أيضا بشر بن مروان ، الذى عينه عبد الملك واليا على العراق بعد أن اسـتتب له الامر هناك وتخلص من مصعب بن الزبير فى سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م)

وظل بشر بن مروان واليا على العراق حتى توفى وهو وال عليها فى سنة ٧٥ هـ وولى بعده الحجـاج بن يوسـف الثقفى . وكانت أم بشر كلابية أى قرشـية من عرب الشـمال وهى قطبة بنت بشر بن عامر بن كلاب .

ومن اخوة عبد العزيز أيضا محمد بن مروان صاحب الجزيرة والثغور ، أى أنه كان يلى الجزيرة وهى شمالى الشام والعراق ، أما الثغور فكانت خط الدفاع بين أرض العرب فى شـمالى دجلة والفرات وشمالى الشام وبين أرض البيزنطيين أعداء العرب . ومحمد هذا هو والد مروان الثانى آخر خلفاء الدولة الاموية فى المشرق . وكانت أم محمد بن مروان « أم ولد » . والمعروف أن الأمة أو الجارية التى تلد لسيدها مولودا يعترف به تصبح أم ولد ، وترتفع منزلتها الاجتماعية ولا يجوز بيعها أو اهداؤها وتنال حريتهـا بعد مـوت سيدها .

وكان لعبد العزيز بن مروان أخت شقيقة هى أم عثمان بنت مروان تزوجها عبد الملك بن الحارث بن الحكم . كذلك كان لعبد العزيز أخت شقيقة لعبد الملك هى أم عمرو تزوجها الوليد بن عثمان بن عفان .

الفصل الثانى

عبد العزيز بن مروان وتوليه امارة مصر

١ ـ عبد العـزيز بن مـروان أتى الى مصر على رأس جيش محارب ٠
٢ ـ موقعة الخندق واشتراك مصر فى القضاء على ابن الزبير
٣ ـ ادراك عبد العزيز بن مروان لعظم مسئوليته فى مصر ٠

١ ـ عبدالعزيز بن مرون أتى الى مصر على رأس جيش محارب:

بويع مروان بن الحكم بالخلافة فى الجابية فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ (يولية ـ تموز ٦٨٤ م) وتأكدت بيعتـه بعد موقعة مرج راهط فى آخر سنة ٦٤ هـ ، اذ بويع بيعة عامة فى دمشـق فى المحرم من سنة ٦٥ هـ (٦٨٤ م) • وذكرنا أن الشام كلها خلصت لمروان بن الحكم بعد مرج راهط وانتهى أمر عبدالله بن الزبير فيها ثم اتجه مروان الى جعل خلافته نافذة على البلاد الاسلامية جميعا وبدأ بمصر التى كانت تتبع عبد الله بن الزبير •

والمعروف أن مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ وأصبح ولاتها منذ ذلك الحين يولون من قبل الخلفـاء الامويين • ولم تظهر دعوة عبدالله بن الزبير بمصر الا عقب وفاة الخليفة يزيد بن معاوية وذلك فى أثناء ولاية سـعيد بن يزيد بن علقمة عليها (٦٢ ـ ٦٤ هـ) • وقام بالدعوة لابن الزبير الخوارج الذين كانوا يحسبون ابن الزبير على مذهبهم •

والحق أن الفرق المختلفة من الشيعة والخوارج كانت تؤيد جموع الثائرين على الخـلافة علها تسـتطيع الوصـول الى مآربها المختلفة دينية كانت أو سياسية • فلم يقل أحد بأن ابن الزبير كان يدين بمذهب الخوارج ، ولكن ربمـا ادعى الخـوارج فى مصر ذلك ، وساعدهم فى دعوتهم هذه ما لاقوه من ترحيب ابن الزبير بهم واعتماده عليهم فى نشر دعوته • والمعروف أن الخوارج قدموا على ابن الزبير فى مكة ليؤيدوه فى الدفاع عن مـكة والحـرم ، ثم فارقوه بعد موت يزيد بن معاوية (ربيع الاول سنة ٦٤ هـ) بعد

ما تبين لهم أنهم يختلفون معـــه فى المذهب والهـدف • فتوجهت الغالبية منهم الى البصرة وعلى رأسهم نافع بن الأزرق ، لكن أهل البصرة طاردوا الخوارج الأزارقة ، فأقام الأزارقة فى الأهواز شرقى البصرة فى شوال سنة ٦٤ هـ • وتوجه فريق آخـر من الخوارج الى اليمامة وولوا عليهم رجلا يدعى أبا طالوت ، ثم لحق باليمـامة نجدة بن عطية الذى فارق نافع بن الازرق وخرج على مبادئه • وفى اليمامة تبع الناس نجدة بن عطية وخلعوا أبا طالوت فكون نجدة دولة الخوارج النجدات فى جزيرة العرب • أما فى مصر فان الخوارج أوفدوا وفدا الى عبدالله بن الزبير ليرســل الى مصر أميرا من قبله يؤازرونه • كذلك خـرج من مصر الى ابن الزبير أنــاس من غير الخوارج ، منهم أبو عبيدة وعياض ابنا عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهرى ، وأبو بكر بن القاسم بن قيس العذرى ، وحيان بن الأعين الحضرمى ، وحجوة بن الأسود الصدفى • وأرسل عبد الله بن الزبير واليا من قبله على مصر وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهرى، فقدم مصر فى جمع كثير من الخوارج الذين كانوا بمصر وذهبوا الى ابن الزبير فى مكة • ولما دخل ابن جحدم مصر فى شعبان من سنة ٦٤ هـ وثب الخوارج على واليها سعيد بن يزيد فاعتزل الولاية بعد أن حكم مصر سنتين الا شهرا ، وبذلك بدأت ولاية ابن جحدم على مصر من قبل عبدالله بن الزبير •

والحق أن بيعــة المصريين لابن الزبير لم تكن صافية أو عن اقتناع فيذكر الكندى أنه حين أظهر الخوارج مذهبهم ورأيهم فى التحكيم ودعوا اليه ، استعظم الجند ذلك • كذلك بايع شيعة بنى أمية ابن الزبير مكرهين وفى ذلك يقول الكندى : « وبايعه الناس على غل فى قلوب ناس من شيعة بنى أمية » (١) ولهذا نرى أنه بعد بيعة مروان بن الحكم بالخلافة فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ فى مؤتمر

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٢

الجابية تنفس أنصار الأمويين فى مصر الصعداء وأرسلوا الى مروان يدعونه اليها وهم فى العلانية مع ابن جحدم .

ولم يتأخر مروان عن القدوم الى مصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير ، فلم تكد الامور تستقر له فيالشام حتى نراه يعد العدة لاسترجاع مصر ثانية للأمويين . وحين سار مروان الى مصر سار معه خالد بن يزيد بن معاوية ، وعمرو بن سعيد ، وعبدالرحمن ابن الحكم أخو مروان ، وحسان بن بحدل ، ومالك بن هبيرة السكونى . وهكذا نرى مروان يأخذ معه فى حملته على مصر الشخصيات التى قد تعضده وتؤازره ، وقد تجلب له المتاعب ان هو تركها فى الشام ، بل ان الكندى يذكر أن زفر بن الحارث سار معه الى مصر ، وزفر كان زعيم القيسية وضد جموع اليمنية الذين اعتمد عليهم مروان في معركته لكسب الخلافة ، والذى ذكر الطبرى عنه أنه هرب بعد مرج راهط الى قرقيساء فى أعالى الجزيرة .

وقبل أن يصل مروان على رأس جيشه الى مصر أرسل أمامه ابنه عبد العزيز بن مروان على رأس جيش وأمره ان يدخل مصر عن طريق أيلة (العقبة الحالية) .

٢ ـ موقعة الخندق واشتراك مصر في القضاء على ابن الزبير :

لم يشأ عبد الرحمن بن جحدم أن ينتظر حتى يأتيه جيش عبدالعزيز بن مروان ومن بعده جيش أبيه مروان بن الحكم بل نراه يعزم على أن يرسل الجيوش والسفن لتصد جيش عبد العزيز وجيش مروان عن القدوم الى مصر • وكان ابن جحدم أميرا نشيطا حازما ولذلك نراه يعد العدة ويرسم الخطط كي يحبط مساعي الأمويين • وقد أشار الجند على ابن جحدم بحفر خندق حول الفسطاط للدفاع عن مصر وفعلا أمر بحفر الخندق فحفر في شهر واحد ، وفي ذلك يقول ابن أبي زمزمة الخشني :

وما الجد الا مثل جد ابن جحدم
وما العزم الا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفا قد أثاروا ترابه
وخدوه (١) في شهر حديث مصدق

ويبدو من شعر أبي زمزمة الخشني أن ثلاثين ألفا عملوا بجد وعزم صادق لانهاء حفر الخندق في شهر واحد •

وأعقب ابن جحدم حفر الخندق بارسال جيش الى الشام أمر عليه السائب بن كنانة بن هشام العامري ، كما سير اليها حملة بحرية بقيادة الأكدر بن حمام اللخمي • وأرسل الى أيلة جيشا آخر بقيادة زهير بن قيس البلوي ليمنع عبد العزيز بن مروان من السير الى مصر • أما جيش السائب فقد انتصر عليه مروان بن الحكم بخدعة غريبة اذ أخبره روح بن زنباع بان للسائب بفلسطين ولدا رضيعا ، فأخذه مروان معه ولما التقى بجيش السائب أظهر مروان له ابنه الرضيع وقال : « أتعرف هذا يا سائب • قال : هذا ابني •

---

(١) خدوه : شقوه

قال : نعم فوالله لئن لم ترجع عودك على بدئك لأرمينك برأسه . فرجع السائب بجيشه ذلك ولم يقاتل فسمى جيشه جيش الكرارين » (١) .

وأما المراكب التى سيرها ابن جحدم فقد هبت عليها ريح عاصف أغرقتها ونجا أميرها الأكدر وعاد الى الفسطاط .

وأما زهير بن قيس فلقى عبد العزيز بن مروان فى بصاق وهى سطح عقبة (٢) أيلة . وتقاتل الجيشان وانهزم زهير ومن معه ، وانتصر عبدالعزيز بن مروان انتصارا رائعا حتى أن زهيرا اشاد بنصر عبدالعزيز فى هذين البيتين :

منعت بصاقا والبطاح فلم ترم
بطاحك لما أن حميت ذماركا
قسرت الألى ولوا عن الأمر بعدما
أرادوا عليه فاعلمن اقتسارك (٣)

وهكذا نرى أن خطة ابن جحدم لمنع دخول جيش مروان وجيش عبدالعزيز قد فشلت فكان لا محالة من الاشتباك فى قلب مصر ، وكان اعتماد ابن جحدم الأخير على خندق الفسطاط . أما مروان وابنه عبد العزيز فقد اتجها الى مصر ؛ وحين وصل مروان الى عين شمس خرج اليه ابن جحدم فى اتباعه من أهل مصر فتحاربوا يوما أو يومين ثم رجعوا الى خندقهم . وأخذوا يحاربون مروان من الخندق ، وقد سميت تلك الايام بأيام الخندق والتراويح، فكان أهل مصر يتناوبون القتال فيخرج نفر للقتال ثم يرجعون ، ويخرج غيرهم وهكذا . واشتد القتال بين الفريقين وكثر القتل فى المعافر وفى كثير من أهل القبائل من أهل مصر ، كذلك قتل من

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٣

(٢) العقبة : هى المرقى الصعب من الجبال ، او الطريق فى اعلى الجبال . والجمع عقاب وعقبات . ونلاحظ أن ايلة هى العقبة الحالية ولا شك أن الاسم الحالى يرجع الى انها منطقة جبلية .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة . ص ٤٣

أهل الشام جمع كثير • وأخيرا توسط بعض الرجال البارزين فى الصلح بين أهل مصر وبين مروان على أن يدفع ابن جحدم الى مروان مالا وكسوة ، وعلى أن يتغاضى الطرفان عما حدث قبل الصلح • وأجاب مروان الى الصلح وكتب الى أهل مصر بيده كتابا يؤمنهم فيه • ثم دخل مروان الفسطاط فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ • وانتهى فى مصر حكم عبد الله بن الزبير بعد أن دام فيها نحو تسعة أشـهر وهى المدة التى ولى فيها عبد الرحمن بن جحـدم • ونزل مروان فى « دار الفلفل » وكانت عند قبلة مسجد عمرو بن العاص، ولكنه قال : « لا ينبغى لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها دار » ، فأمر « بالدار البيضـاء » فبنيت له ، كذلك أمر مـروان بوضـع العطاء ، أى فرض مرتبات الجند وأسراتهم •

وبايع المصريون مروان بن الحكم الا نفرا من المعافر لم يرضوا بنكث بيعة ابن الزبير بعد أن بايعوه طائعين • ولما كان مروان يريد أن يقضى على خلافة ابن الزبير نهائيا من مصر فقد اضطر الى قتلهم بعد أن أبوا بيعته وكانوا ثمانين رجلا • كذلك ضرب مروان عنق الأكدر بن حمام بن عامر بن صعب ، وكان سـيد لخم وشيخها ، وحضر فتح مصر هو وأبوه ، وكان ممن سار الى عثمان بن عفان فى الثورة ضده • ولسنا نشك أن قتل مروان للأكدر كان انتقاما لمقتل عثمان بن عفان • ولم يكن مع الاكدر حين قتل أحد من قومه، لكن حين تسامع القوم بمقتله حدث شغب وهرج ، وحضر الى باب مروان من الجند أكثر من ثلاثين ألفا واضطر مروان الى اغلاق بابه• ومرة ثانية نرى كريب بن أبرهة الذى كان ضمن سفارة الصلح بين مروان وابن جحدم ، نراه يسـفر فى الصلح بين الجنـد وبين مروان عقب مقتل الأكدر اذ القى رداءه على مروان وقال للجنـد : « انصرفوا أنا له جار » ، وفعلا انصرف الجند الى منازلهم • وكان قتل الأكدر فى النصف من جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ ، وقد توفى يومئذ عبدالله بن عمرو بن العاص فلم يكن من المستطاع الخروج بجنازته الى المقبرة لتشغب الجند على مروان فدفن فى داره •

وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها فى أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية الى الحكم الأموى ، كما ولى عليها ابنه عبد العزيز .

على أن مصر بعد خروجها عن طاعة ابن الزبير لم تقف على الحياد فى النزاع الذى كان بينه وبين الخلفاء الأمويين ، بل مدت يد المساعدة الى الخلافة الأموية كى تعينها على التخلص منه ، فأرسل عبد العزيز بن مروان أمير مصر حملة بحرية الى مكة فى سنة ٧٢ هـ لقتال عبدالله بن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل. وكانت هذه الحملة خير من عاون الحجاج بن يوسف الثقفى فى مهمته التى كلفه اياها الخليفة عبد الملك بن مروان ، بعد أن قضى على مصعب بن الزبير فى العراق ، وهى التخلص من عبد الله بن الزبير فى الحجاز آخر معقل للزبيريين . وكان فى الحملة المصرية رجل اسمه عبد الرحمن بن بحنس (ويحتمل أن يكون اسمه ابن يحنس) ويقال ان هذا الرجل المصرى الذى كان أحد موالى تجيب هو الذى قتل ابن الزبير فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

ونلاحظ هنا أن خلافة ابن الزبير رفعت من شأن الخوارج بمصر لفترة يسيرة الا أنهم كما يقول المقريزى (١) انكفت ألسنتهم هم والعلوية بعد تغلب مروان على مصر .

على أن الخوارج عادوا الى الظهور فى ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ - ٩٦ هـ) فى خلافة الوليد بن عبد الملك . فيذكر الكندى والمقريزى أنه عندما خرج قرة الى الاسكندرية فى سنة ٩١هـ اتفق الخوارج بالاسكندرية ، وكانت عدتهم نحو مائة ، على الفتك به ، وكان رئيسهم اذ ذاك المهاجر بن أبى المثنى التجيبى أحد بنى فهم ، وقد علم بذلك رجل يكنى بأبى سليمان ، فأبلغ قرة ما عزم عليه الخوارج فأخذهم بغتة قبل أن يتفرقوا وحبسهم ، وقد أقروا بما عزموا عليه فقتلهم .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣٨

٣ ـ ادراك عبد العزيز بن مروان لعظم مسئوليته فى مصر :

غادر مروان بن الحكم مصر لهلال رجب سنة ٦٥ هـ أى أن مقامه فى مصر منذ أن دخلها ليضمها الى الخلافة الأموية الى أن خرج منها كان شهرين . وقبل أن يغادر مصر ولى عليها ابنه عبدالعزيز ابن مروان الذى اشترك معه فى القضاء على حكم عبدالله بن الزبير فى مصر . وبذلك بدأت ولاية عبدالعزيز بن مروان فى مصر منذ أول رجب سنة ٦٥ هـ . ويبدو من المصادر المختلفة ان عبدالعزيز ابن مروان كان يدرك ان المسألة ليست تشريفا ومنصبا كبيرا ، وانما لا بد من العمل والجهد المتواصل فى بلد ما زال أعجميا . ويؤثر فى الروايات التاريخية انه قال لأبيه حين ولاه على مصر : « يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى . فقال له مروان : يا بنى عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقـا تصف لك مودتهم ، وأوقع الى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عينا لك على غيره ، وينقد قومه اليك ، وقد جعلت معك أخاك بشرا مؤنسا ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيرا ومشيرا وما عليك يا بنى أن تكون أميرا بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من اغلاق بابك وخمولك فى منزلك !! » (١) . والحق ان نصيحة مروان لابنه عبدالعزيز يتضح منها عصارة تجارب مروان وخبرته الطويلة فى السـياسة والحكم ، كما انه شجع ابنـه على العمل بدلا من الخمول والكسل ، ومع ذلك فانه ترك له اخاه بشر ابن مروان ليؤنسه ، كما ترك معه فى مصر موسى بن نصير ليكون الوزير والمشير .

ويروى أيضـا ان عبد العـزيز بن مروان قال : « أوصانى مروان حين ودعته عند مخرجه من مصر الى الشام فقال : أوصيك

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٧

بتقـوى الله فى سر أمرك وعلانيتك ، فان الله مع الذين اتقـوا والذين هم محسنون ، وأوصيك ألا تجعل لداعى الله عليك سبيلا فان المؤذنين يدعون الى فريضة افترضها الله عليك . ان الصـلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، وأوصيك ألا تعد الناس موعدا الا أنفذته وان حملت على الأسنة ، وأوصيك ألا تعجل فى شىء من الحكم حتى تستشـير ، فان الله عز وجل لو أغنى أحـدا عن ذلك لأغنى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم عن ذلك بالوحى الذى يأتيه: قال الله عز وجل : « وشاورهم فى الأمر » (١) .

والحق أن نصـائح مروان لابنـه تفصح عن أخـلاق مروان وسياسته وتجاربه فى الادارة فلم ينس أن يذكر ابنه بتقوى الله فى السر والعلانية والتزام الصلاة وعدم اهمالها ، كما أوصاه بالبر والاحسان ، وتنفيذ وعده اذا وعد ، كذلك أوصاه بالمشورة قبل القيام بأى عمل من أعمال الدولة ، وقد مر بنا أن مروان منذ كان يحكم المدينة اتبع أسلوبا شوريا ديمقراطيا .

وسنرى أن عبد العزيز بن مروان اتبع نصائح أبيه فى حكم مصر وكان أميرا ناجحا مدة عشرين سنة . ولم تكن المسألة مسألة نصائح وكلام .. وانما كانت النصائح هنا تذكيرا بأمور شب عليها عبدالعزيز واخذها عن ابيه حتى سلمه زمام الأمور فى مصر وغربى العالم الاسلامى .

ولا شك أن عبدالعزيز بن مروان سعد بولايته على مصر مع ادراكه خطورة هذا المنصب ويؤثر عنه أنه قال : « قدمت مصر فى امرة مسلمة بن مخلد فتمنيت بها أمانى فأدركتها : تمنيت ولاية مصر وأن أجمع بين امرأتى مسلمـــة ، ويحجبنى قيس بن كليب حاجبه » ويعلق الكندى (٢) على ذلك فيقول « فتوفى مسلمه فقدم مصر فوليها ، فحجبه قيس ، وتزوج امرأتى مسلمة وهما أم كلثوم الساعدية وأروى بنت راشد الخولانى » .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ٤٧ ــ ٤٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٤ .

الفصل الثالث

عبد العزيز بن مروان ونظام مصر الادارى

١ ـ المناصب الرئيسية الادارية

٢ ـ تقسيم مصر الادارى

٣ ـ سلطات عبد العزيز بن مروان الادارية .

١ ـ المناصب الرئيسية الادارية :

لما فتح العرب مصر وجدوا بهـا نظما منذ أقدم الأزمنة ونمت وترعت فى خلال العصور المختلفة ، فقضت عليهم الحنكة السياسية ألا يمسوا تلك النظم ، بل أبقوا عليها كما فعل الرومان من قبلهم عندما كانوا يحتلون بلادا راقيـة فى نظمها متقـدمة فى حضـارتها واكتفى العرب بشـغل بعض المناصب الرئيسـية ، ليشرفوا على الادارة بوجه عام ٠

كان الخليفة يعين فى مصر واليا يمثله ، ويقال ولاية عمرو بن العاص مثلا أو ولاية عبد العزيز بن مروان ، ويقال للوالى أيضا «أمير مصر» وللدار التى يقيم فيها والى مصر « دار الامارة » ٠ ونجد فى أوراق البردى اليونانية اسما آخر للوالى هو سيمبولس (١)٠ وكان الوالى يؤم المسلمين فى المسجد الجامع فى صـلاة الجمع والأعياد بوصفه نائبا عن الخليفة ، ولذا يطلق عليه « أمير الصلاة » ، ويقال عن ولايته « ولاية الصلاة » ٠ واذ كان المسلمون يعتبرون أن امامة الصلاة مما يختص به الخلفاء ، ويطلقون على الخليفة لفظ « امام » ، كانت امامة الوالى فى الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالى وعلى رياسته العليا السياسـية فى الدولة ٠ ولم يكن الوالى مسئولا أمام أحد عن عمله الا أمام الخليفة ٠ وكان الوالى يجمع أحيانا الى سلطته ادارة المالية المعبر عنها « بالخراج » مما يجعله مطلق التصرف فى الدولة ، وأحيانا يسند الخليفة عمل الخراج الى شخص آخر يكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ، وكان هذا يحد سلطة الوالى كثيرا اذ يصبح عاجزا عن التصرف فى الأمور المالية كما

---

(١) Grohmann : Arabic Papyri, Vol. III, p. 62 (Cairo 1938)

يشاء • ولذا كان لعامل الخراج أهمية كبيرة وكثيرا مايكون منافسا للوالى مع أن الوالى هو رئيس الولاية بالنيابة عن الخليفة • وحسبنا دليلا على أهمية عامل الخراج •• أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الاسكندرية سنة ٢٥ هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمرا على الحرب (أى يوليه على الصلاة) وأن يولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح على الخراج فقال عمرو : « أنا اذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها » (١) • ورفض عمرو ما أراد عثمان وترك ولاية مصر •

ونتبين أيضا تلك الأهمية التى كانت لعامل الخراج من أنه بعد وفاة عمرو بن العاص ، عين معاوية بن أبى سفيان أخاه عتبة ابن أبى سفيان (٤٣ — ٤٤ هـ) واليا على الصلاة فى مصر ، وولى وردان الخراج • ثم خرج عتبة بن أبى سفيان الى معاوية فى نفر من أهل مصر ، فسأل معاوية الوفد عن عتبة ، فقال أحدهم «حوت بحر يا أمير المؤمنين على بر » فقال معاوية لعتبة : اسمع مايقوله فيك رعيتك • فقال : صدقوا يا أمير المؤمنين !! حجبتنى عن الخراج ولهم على حقوق وأكره أن أجلس فأسأل فلا أفعل فأبخل • فضم اليه معاوية الخراج (٢) • وهكذا نرى أن والى مصر كانت تتسع سلطته ويصبح غير مقيد فى حكمه لها اذا ضم اليه الخليفة الخراج • وحين خرج مروان بن الحكم من مصر بعد أن مهد أمورها عين ابنه عبد العزيز على صلاتها وخراجها ، أى أن عبد العزيز بن مروان أصبحت له الرياسة السياسية العليا على مصر والاشراف على خراجها أو ماليتها •

وكان بيد الوالى أيضا « الحرب » ، أى الرياسة على الجيش فى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها — طبعة تورى — ص ١٧٨

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة المعهد العلمى الفرنسي — ص ٧٨

الولاية ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا : « ولى فلان الحرب » كناية عن ولايته لمصر . فوالى مصر كان يشرف على شئون الحامية التى فى مصر ، وكان يقود هو نفسه الجيش فى الحملات التامينية لمصر أو لصد الأعداء عنها ، أو يرسل من يقوده نيابة عنه . ومثل تلك الحملات كانت بوجه خاص فى السنوات الأولى بعد الفتح ، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات نفتح برقة وطرابلس ، كما أرسل عبد الله بن سعد لفتح النوبة . وكذلك خرج عبد الله بن سعد فى أثناء ولايته على مصر على رأس الحملات التى سارت لغزو افريقية والنوبة ، كما غزا الروم فى غزوة ذى الصوارى .

وكان لوالى مصر أيضا الاشراف على الشرطة ، وكان مقر الشرطة فى مدينة الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص . ولما بنى العباسيون مدينة العسكر التى كانت تقع شمالى الفسطاط ، عملت شرطة أيضا فى العسكر وقيل لها « الشرطة العليا » ولا ترجع تسميتها « الشرطة العليا » الى أنها أعظم شأنا من شرطة الفسطاط كما قد قسمت الفسطاط الى « عمل فوق » و « عمل أسفل » ، بل ان صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط كان أعلى شأنا وأعظم اختصاصا من زميله بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى الحاضرة (١) .

وكان والى مصر هو الذى يعين صاحب الشرطة كما ورد فى المصادر القديمة . وفى حالات نادرة جدا كان الخليفة هو الذى يعين صاحب الشرطة ، ومن ذلك ما كان من الخليفة المأمون العباسى حين عين صاحب الشرطة بمصر بعد ما قضى على الثورة التى كانت فيها سنة ٢١٧ هـ .

والمعروف أنه حين قدم مروان بن الحكم مصر جعل على شرطه فى أثناء مقامه بها عمرو بن سعيد بن العاص . ولما خرج مروان

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ١ ص ٥ و ٢٩٩ (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) والكندى : الولاة والقضاة ص ١٠٢ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١١٨ .

من مصر ومعه عمرو بن سعيد بن العاص ، جعل عبد العزيز بن مروان على شرطته عابس بن سعيد المرادى • وصاحب الشرطه هذا كان بمثابة نائب للوالى يؤم النـاس فى الصـلاة اذا مرض الوالى ، ويحكم الولاية اذا خرج الوالى من مقر ولايته • فنرى خارجة بن حذافة صاحب الشرطة يؤم الناس فى الصلاة فى أثناء مرض عمرو بن العاص ، ونرى عابس بن سعيد المرادى صاحب الشرطة ينوب عن عبد العزيز بن مروان عندما خرج عبد العزيز الى الخليفة عبد الملك بن مروان فى سنة ٦٧ هـ • ولذا نجد أن صاحب الشرطة كثيرا ما يعينه الخليفة واليا على البلاد اذا ما عزل الوالى أو مات أو تنحي عن أمور الولاية •

وكان صاحب الشرطة « الكفء » يتولى الشرطة أحيانا لعدة ولاة وخير مثل لذلك عابس بن سعيد المرادى ، اذ ولى عابس شرطة مسلمة بن مخلد فى سنة ٤٩ هـ بدلا من السائب بن هشام بن كنانة العامرى واضطر مسـلمة فى وقت من الأوقات أن يصرف عابس بن سعيد عن الشرطة وأن يوليه امارة البحر ليغزو الروم الذين كانوا يهددون مصر فى هذا العهد ويحاولون محاولات يائسة لاستردادها • والمعروف أن البيزنطيين غزوا مصر فى امارة مسلمة ابن مخلد ونزلوا البرلس فى سنة ٥٣ هـ واستشـهد يومئذ وردان • مولى عمرو بن العاص ، وعايذ بن ثعلبة البلوى ، وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمى فى جمع من الناس كثير •

ونرى مسلمة بن مخلد والى مصر يعـزل فى سنة ٥٧ هـ السائب بن هشام صاحب الشرطة الذى ولاه بدلا من عابس ويرد عابسا •

وعرف عن عابس من الأخبار والروايات المختلفة أنه كان شديدا حازما • وحين خرج مسلمة بن مخلد الى الاسكندرية فى سنة ٦٠ هـ استخلف عابس بن سعيد على الفسطاط ثم توفى

معاوية بن أبى سفيان فى رجب سنة ٦٠ هـ وولى الخلافة يزيد بن معاوية فأقر يزيد بن معاوية ، مسلمة بن مخلد على مصر صلاتها وخراجها ، ومسلمة يومئذ بالاسكندرية ، فكتب الى عابس ليأخذ البيعة ليزيد • فبايعه الجند وأهل مصر الا عبد الله بن عمرو بن العاص • لكن عابسا كان شديدا فى عمله • لا يعرف اللين أو الضعف فلم يقبل من عبد الله بن عمرو بن العاص الامتناع عن البيعة ليزيد وهدد عبدالله بالاحراق • وفى ذلك يقول الكندى « فدعا عابس بالنار ليحرق عليه » (١) ولما رأى ذلك عبد الله ابن عمرو بايع ليزيد • وحين قدم مسلمة من الاسكندرية فى أول سنة احدى وستين جمع لعابس مع الشرطة القضاء •

وبعد وفاة مسلمة بن مخلد فى رجب سنة ٦٢ هـ تولى عابس ابن سعيد أمر مصر الى أن قدم واليها الجديد سعيد بن يزيد الأزدى فى رمضان من تلك السنة فأقر عابسا على الشرطة والقضاء • ولما ولى مصر عبد الرحمن بن جحدم من قبل عبد الله بن الزبير فى شعبان سنة ٦٤ هـ أقر عابس بن سعيد على الشرطة والقضاء أيضا •

ولما ولى عبد العزيز بن مروان صلاة مصر وخراجها لم يشأ أن يغير عابسا فأقره على الشرطة والقضاء ، واستخلفه على مصر حين خرج الى أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان فى سنة ٦٧ هـ وحضر مقتل عمرو بن سعيد بن العاص فى دمشق • وتذكر المصادر أنه حين خرج عبد العزيز الى الشام فى سنة ٦٧ هـ «فرض عابس فروضا وزاد فى أعطيات الناس من الجند » • ونفهم من تلك العبارة أن عابسا زاد من الضرائب كما زاد فى أعطيات الجند ، أو رواتبهم • وقيل ان عبد العزيز بن مروان حين عاد الى مصر ولقى عابسا سأله عما فعله فى غيابه من زيادة الفروض وزيادة العطاء

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة : ص ٣٩

وقال لعابس : « ما حملك على ذلك ؟ » فرد عابس : « أردت أن اثبت وطأتك ووطأة أخيك فان أردت أن تنقضه فانقضه » ويظهر من رد عابس أنه كان لا يقصد تحدى الأمير لمجرد التحدى وانما كان يعتقـد أن ما فعله هو الصحيح ولذلك رد الرجـل الشجاع الواثق من نفسه الذى لا يحب أن يستجوب فيما يعتقد أنه العمل الصحيح • وكان عبد العزيز بن مروان فطنا ذكيا وليس مستبدا ولم يرد أن يأخذ الرجل بكلامه وهو العامل النشيط المخلص فقال له : « ماكنا لنرد عليك شيئا فعلته » •

وهـكذا نرى حـكومة العـرب تحـرص على الاستفادة من الشخصيات المجدة العاملة ولا تحاول أن تبعدها أو تهملها بسبب تغير الخلفاء أو الولاة أو المنازعات حول الخلافة • وحين توفى عابس ابن سعيد سنة ٦٨ هـ ولى عبدالعزيز بن مروان على الشرطة زياد ابن حناطة بن سيف بن حلاوة التجيبى • ولما خرج عبد العزيز ابن مروان الى الشام وافدا على الخليفة عبد الملك فى سنة ٧٥ هـ استخلف على مصر زياد بن حنـاطة التجيبى ولما توفى زياد فى شوالى سنة ٧٥ هـ استخلف عبد العزيز الأصبغ ابنه ولما قدم عبد العزيز الى الفسـطاط أول سنة ٧٦ هـ جعل على الشرطة عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية بن حـزن التجيبى أحـد بنى سعد • وحين توفى عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية فى جمادى الأولى سنة ٨٤ هـ جعل عبد العزيز على الشرط يونس بن عطية ابن أوس الحضرمى • ثم صرف يونس لمستهل سنة ٨٦ هـ وجعل على الشرطة عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبى فظل رئيسا للشرطة الى أن توفى عبد العزيز بن مروان •

وتكاد المراجع والمصادر التى بين أيدينا لا تذكر شيئا عـن أعمال الشرطة فى مصر ولكن لابد أن الولاة كانوا يعهـدون الى صاحب الشرطة بنشر الأمن فى البلاد وبتنفيذ العقوبات التأديبية

التى يفرضونها ، كما كانت وظيفة صـــاحب الشرطة فى الخلافة نفسها ، ولابد أنه كان لصاحب الشرطة عمال فى العاصمة وفى الأقاليم لتنفيـــذ أوامره • ونلاحظ أن اســتتباب الأمن فى مصر وتطبيق القوانين فيها وتنفيذ الأحكام القضائية ومنع الجرائم ، كل ذلك كان يضمن للخلافة استغلال موارد البلاد على أتم وجه ويضمن لها أكثر مايمكن من الضرائب • ويظهر أن المصادر القديمة ترجع دائما استتباب الأمن فى البلاد الى الولاة لا الى أصحاب الشرطة لأن الوالى هو الرئيس الأعلى فى الولاية وهو الذى يأمر صاحب الشرطة بذلك ، وهو الذى يعين صاحب الشرطة فى معظم الأحيان•

وكان أصحاب الشرطة يهتمون أيضا بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق •

ومن الوظائف الرئيسية الهامة فى تلك الفترة أيضا وظيفة صـــاحب البريد ، ولم تكن تلك الوظيفة قـائمة فى عهد الخلفاء الراشدين وانما بدأتها الدولة الأموية ثم تقدم البريد فى عهد الدولة العباسية • ويقال ان معـــاوية بن أبى سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار اليه بسرعة من جميع أطراف بلاده وتبعه فى ذلك الأمويون ومن بعـــدهم العباسيون • ولم يكن البريد يخـدم مراسلات الشعب وانما كان نظاما رسميا حكوميا • وكانت مهمة صاحب البريد فى أول الأمر توصيل الأخبار الى الخليفة بسرعة من الولايات المختلفة وبالعكس ، ثم أصبح صاحب البريد عينا للخليفة ينقل أوامره الى ولاته ، وينقل أخبار ولاته اليه ، كما يتجسس على أعداء الدولة •

أما كلمة بريد فالراجح أنها ليست عربية الأصل ، وأنها من أصل لاتينى (فريدوس Veredus) ومعناها الدابة التى يركبهـا العامل لنقل مكاتبة أو رسالة ، ثم نقلت الكلمة مجازا الى المسافة المقطوعة ، ثم استعملت كاسم للنظام كله • وقيل آن لفظ بريد

عربى وأنه مشتق من برد بمعنى أرسل • وقيل ان البريد فى اللغة هو مسافة معلومة قدرها الفقهاء بأربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، أى أن البريد مسافة معلومة قدرها اثنا عشر ميلا • وقيل أيضا ان لفظ بريد فارسى معرب وان أصله بالفارسية « بريده دم » ومعناها مقصوص الذنب ، ذلك لان الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز بذلك عن غيره من الدواب الاخرى •

وقد جعل معاوية بن أبى سفيان للبريد محطات ، أو مراكز للاستراحة وللتزود بالزاد والعلف والماء ، ولتغيير الدواب والراكبين ، وكانت المسافة مابين المحطتين فرسخين أى ستة أميال ، أو أربعة فراسخ • أما الدواب التى كانت تستعمل فى البريد فهى البغال والخيل والابل ، وكانت الابل السريعة تستخدم بوجه خاص فى الجهات الصحراوية •

وتقدم نظام البريد تقدما كبيرا فى خلافة عبد الملك بن مروان فأحكمت أمور البريد وأدخل عليه عدة تحسينات حتى أصبح أداة هامة فى ادارة شئون الدولة • ويذكر الرواة أن عبد الملك قال لابن الدغيدغة : « وليتك ماحضر بابى الا أربعة : المؤذن ، فانه داعى الله تعالى فلا حجاب عليه • وطارق الليل فشر ما أتى به ولو وجد خيرا لنام • والبريد ، فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه ، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة • والطعام اذا أدرك ، فافتح الباب وارفع الحجاب ، وخل بين الناس وبين الدخول » (١)

وقد وصلت الينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) كشفت بالقرب من بيت المقدس وتشير الى أوامره ، بصنعة الأميال ، ومعنى صنعة الأميال مسح الأراضى لوضع حدود أو علامات على كل مسافة قدرها ميل • كما تبين تلك النقوش

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى : ج ١٤ ص ٣٦٨

المعاصرة لعبد الملك عمارة أربعة طرق تخرج من ايلياء ، أى بيت المقدس ، ومن دمشق (١) ٠ ولاشك أن اهتمام الأمويين بالطرق كان لتسهيل البريد وخـــدمة هذا النظام ٠ وكان رئيس ديوان البريد يعرف باسم صاحب البريد ٠ وكان لصاحب البريد أتباع فى مختلف البلدان ٠ ولم أجد فى المصادر القديمة ذكرا لأصحاب البريد الموفدين من الخلفاء الى مصر اللهم الا فى موضع أو موضعين ٠ ويظهر أن اغفال ذكر أصحاب البريد فى تلك المصادر راجع الى أن مهام وظيفتهم كانت تعنى الخلافة وتعنى عمال الخليفة أكثر مما تعنى مصر نفسها ٠

---

(١) Van Berchem, Max : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Jérusalem, T. I, p. 20 (1920-1922); Combe, Sauvaget, Wiet : Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe, T. I, PP. 13-16.

٢ ـ تقسيم مصر الادارى :

كانت مصر بعد الفتح مباشرة مقسمة اداريا الى قسمين رئيسيين : مصر العليا ومصر السفلى • فيذكر ابن عبد الحكم (١) أن الخليفة عمر بن الخطاب توفى وعلى مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الأرض (٢) وعبد الله بن سعد بن أبى سرح على الصعيد • ولسنا نظن أن هذا البعد عن الدقة من ابن عبد الحكم ينقض مانعرفه من أن عمرو بن العاص كان الرئيس الأعلى وكانت له ولاية مصر كلها • ويذكر الكندى (٣) أنه فى ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر (١٢٤ ـ ١٢٧ هـ) جعل على الصعيد رجاء بن الأشيم ، وعلى أسفل الارض فهد بن مهدى الحضرمى •

وكان هذان القسمان مقسمين الى اقسام • أو كور • ولفظ « كورة » لفظ يونانى احتفظ به العرب • وكان فى مصر حينئذ نحو ثمانين كورة • وكانت الكور مقسمة بدورها الى قرى • والواقع أن العرب احتفظوا الى حد كبير بنظم البيزنطيين الادارية ، بل انهم أبقوا على الأسماء والألفاظ اليونانية التى كانت تستعمل من قبلهم • فنجد مثلا قرة بن شريك والى مصر زمن الخليفة الوليد

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ـ طبعة تورى ـ ص ١٧٣

(٢) أسفل الأرض : أى مصر السفلى أو الوجه البحرى • وكان الوجه البحرى مقسما جغرافيا الى الحوف الشرقى شرقى فرع دمياط والحوف الغربى غربى رشيد ، وبطن الريف بين فرعى رشيد ودمياط (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨٠ ـ ٣٩٠)

(٣) الولاة والقضاة ص ٨٤

ابن عبد الملك (٩٠ ــ ٩٦ هـ) أى بعد وفاة عبد العزيز بن مروان بأربع سنوات ، نراه يرسل كتابا الى بسيل صاحب أشقوه (١) يطلب منه أن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية الى « جسطال » كورته والى « موازيت » القرى . ونلاحظ أن كلمة « جسطال » كانت تعنى حينئذ الموظف المشرف على مالية الكورة ، أى مندوب ديوان الخراج والأموال ، أما موازيت فمعناها رؤساء أو مشايخ القرى . وهاتان الكلمتان لا تمتان بصلة الى اللغة العربية وانما هما مشتقتان من البيزنطية ، فكلمة جسطال مقابلة للكلمة اليونانية « أوجستاليوس » ، أما كلمة « مازوت » فهى مقابلة للكلمة اليونانية « ميزوتروس » .

---

(١) كانت أشقوه كورة من كور الصعيد . واسمها الآن كوم اشقاو بين أبو تيج وطهطا فى محافظة اسيوط . وقد عثر فيها سنة ١٩٠١ م على مجموعة من الاوراق البردية ترجع الى زمن ولاية قرة بن شريك .

٣ ـ سلطات عبد العزيز بن مروان الادارية :

احتفظ العـــرب كما رأينا بالمناصب الرئيسية التى تضمن سيطرتهم على مصر ، وما عدا ذلك أبقوا معظم الأنظمة الموجودة ، وأبقوا على أسماء الوظائف كما كانت من قبلهم ، وتركوا الوظائف والأعمال فى يد أهل البلاد ٠ ومع أن مصر كانت مقسمة اداريا الى الأقســام التى ذكرناها من قبل فان هــذه الأقســام جميعا كانت تحت سلطة الوالى العليا مباشرة ٠ ويوضح لنا سلطات عبد العزيز ابن مروان الادارية ما عرفناه بعد كشف أوراق بردى كوم اشقاو ، التى ترجع الى عهد الوالى قرة بن شريك الذى ولى مصر بعد وفاة عبد العزيز بن مروان بأربع سنوات ٠ فلم يعط ولاة مصر فرصة لعمال الأقاليم للتمكن لأنفسهم وللاستقلال محليا بأمور أقاليمهم ، فكان الحـكم فى مصر مركزيا الى أقصى حـــد وكانت اللامركزية معدومة فى البلاد ، فكما أن الوالى كان تحت سلطة الخليفة مباشرة نرى الوالى بدوره يضع رؤســـاء الأقاليم المختلفة تحت سلطته مباشرة ٠

وتبين لنا الكتب الكثيرة التى كان يرســلها قرة بن شريك (٩٠ ــ ٩٦ هـ) الى صاحب اشقوه (كوم اشقاو) الى أى حد كانت تمتد سلطة الوالى فى الأقاليم ٠ فنراه يرسل كتبا كثيرة الى عمـــاله يطلب منهم ماتجمع من الضرائب ، وفى الوقت نفسه يطلب من صاحب الكورة أن يعـــدل بين الناس ولا يفعل شيئا يكرهونه ٠ ثم نرى الوالى يرسل الى صاحب الكورة يذكر له أن صاحب البريد أخبره بأنه أوقع الغرامة على بعض القرى ويطلب

من صـــاحب الكورة أن يرد ماكان قد عمله حتى يكلمه فى هذا الأمر • وهنا مرة أخرى نرى أنه كما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالى ، كان للوالى أيضا صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم فى مصر • وفى كتاب آخـــر نجد قرة بن شريك يرسل الى صاحب كورة اشقوه بشأن أحد الأفراد الذى أعطى آخر مالا ، ويطلب منه أن ينظر فى أمر تسديد الدين الذى لأحدهما على الآخر • ونجد أيضا كتـــابا لقرة يأمر فيه بالقبض على أحد المجرمين • وفى كتاب آخر نراه يحدد أجور الصناع الذين يعملون فى بناء السفن ولا يترك تحديد ذلك لصاحب الكورة التى منهـــا الصناع (١) •

هذه كلها أمثلة ترينا الى أى حد تغلغلت سلطة الوالى فى شئون البلاد المختلفة • وحتى فى أمور القضـــاء الذى كان يعتبر مستقلا • كان الوالى فى أوقات كثيرة هو الذى يعين القاضى ويصدق الخليفة على هذا التعيين •

واحتاج والى مصر تبعا لذلك الى كتبة كثيرين ليستعين بهم فى تحرير رسائله الى مختلف الجهات فى مصر والى الخليفة نفسه• وقد رأينا فى الأوراق البردية أنه فى آخر الكتب التى كان يرسلها الولاة أسماء الكتبة الذين كانوا يحررونها مما يدل على أنه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان انشاء • ويشـــير القلقشندى (٢) الى وجود ديوان انشاء فى ذلك العهـــد من الفتح الى بداية الدولة الطولونية الا أنه يذكر أنه كان قليـــل الأهمية فيقول : « ولم يكن لديوان الانشاء بالديار المصرية فى هذه المدة

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٠ وماذكرته من مراجع بردية مختلفة (القاهرة ١٩٤٧ م) •

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ج ١١ ص ٢٨ (المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٣ ــ ١٩١٩ م)

صرف عناية تقاصرا عن التشبه بديوان الخلافة ، اذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة الى مايصدر من أبواب الخلافة ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوافر الدواعى على نقله ولا تنصرف الهمم لتدوينه » ·

ونعرف مما ذكره المؤرخ الكندى أنه كان لعبد العزيز بن مروان حرس خاصون به وأعوان وخيل · فيذكر الكندى أن عبد العزيز بن مروان جعل على « الحرس والأعوان والخيل » جناب ابن مرثد بن هانىء الرعينى (١) ·

ويعود الكندى فيفصل وظيفة الحرس فيذكر أن صاحب الشرطة كان غير صاحب الحرس وفى ذلك يقول : « ولم يشرك بينهما عبد العزيز حتى ولى جناب بن مرثد بن زيد بن هانىء الرعينى حرسه وضم اليهم ثلثمائة من الأمداد ، فكان الرجل اذا أغلظ لعبد العزيز وخرج ، تناوله جناب ومن معه فضربوه وحبسوه » (٢) · ونفهم من النص السابق أن الشرطة كانت وظيفة خاصة بأمن مصر وما يستتبع ذلك كما فصلنا من قبل وكان للخلافة كما كان للوالى الاشراف عليها ، أما الحرس والأعوان والخيل فكانت خاصة بأمن الوالى نفسه وحمايته ·

وحين اتخذ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان مقرا له فى سنة ٧٠ هـ جعل بها الحرس والأعوان والشرطة وكان رئيسهم بحلوان جناب بن مرثد · وفى سنة ٨٣ هـ توفى جناب بن مرثد فعين عبد العزيز بن مروان فى مكانه على الحرس والأعوان والخيل عمرو بن كريب بن صالح الرعينى ولكن عمرو توفى بعد أربعين ليلة فعين عبد العزيز فى مكانه سعيد بن يعقوب المعافرى ثم

(١) الولاة والقضاة ص ٤٩

(٢) نفس المرجع ص ٤٩

الشعبانى . وكان عبد العزيز بن مروان يخرج أحيانا الى مقر الخلافة فى دمشق . وربما كان ذلك للتفاهم على بعض الأمور فى الحكم ، وللنظر فى الخطوط العريضة للمسائل السياسية والحربية . فضلا على أن دمشق كانت مقرا لخلافة أخيه ، وكان هو ولى عهد الخلافة، كما كانت دمشق مقرا وموطنا لأسرته بعد هجرتها من الحجاز.
ويذكر الكندى أن عبد العزيز بن مروان وفد على أخيه عبد الملك فى سنة ٦٧ هـ وحضر مقتل عمرو بن سعيد بن العاص . ومر بنا أن عمرو بن سعيد كان يطمع فى أن يلى الخلافة بعد مروان بن الحكم وذلك بعد ما أدى من خدمات للفرع المروانى من بنى أمية فى مؤتمر الجابية وفى مرج راهط . لكنه رأى المسائل قد خرجت من بين يديه الى مروان وبنيه ولذلك نراه يثور فى سنة ٦٩ هـ فى دمشق حين خرج عبد الملك بن مروان لقتال مصعب بن الزبير فى العراق . لكن عبد الملك عدل عن المسير الى العراق وعاد مسرعا الى دمشق ليتدارك الأمر وانتهى الحال بأن أعطى الأمان عمرو بن سعيد بن العاص لكنه عاد فقتله وكان ذلك فى سنة ٧٠ هـ . ويذكر المؤرخون أن المؤذن أذن للعصر وخرج عبد الملك يصلى بالناس وأمر عبد العزيز بن مروان أن يقتل عمرو بن سعيد ، ولما صلى عبد الملك دخل فوجد عمرا حيا فقال لعبد العزيز : « مامنعك من أن تقتله : قال : منعنى أنه ناشدنى الله والرحم فرققت له » وعندئذ تولى عبد الملك قتله بنفسه . والحق أن وجود عبد العزيز منع عبد الملك من التمادى فى الانتقام من أسرة عمرو بن سعيد اذ أن عبد الملك أراد قتل اخوة عمرو : يحيى بن سعيد ، وعتبة بن سعيد .. لكن عبد العزيز اعترضه وقال له : « جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين اتراك قاتلا بنى أمية فى يوم واحد » فعدل عبد الملك عن قتلهم وأمر بحبس يحيى وعتبة .

وكان عبد العزيز بن مروان حكيما فلم يرد أن يتمادى الخليفة فى الانتقام خوفا على وحدة الأمويين وتماسكهم .

والذى يستـــترعى النظر أن مؤرخنـــا الكندى يقـول ان عبد العزيز بن مروان خرج الى دمشق فى سنة ٦٧ هـ وحضر مقتل عمرو بن سعيد . وأغلب الظن أن عبد العـزيز بن مروان خرج أكثر من مرة الى دمشق وانه لم يبعد عن مقر ولايته مدة كبيرة تزيد على ثلاث سنوات . وحين خرج عبد العزيز الى دمشق خلف على مصر صاحب شرطته عابس بن سعيد المرادى . ويذكر الكندى أن عبد العزيز خرج الى الشام وافدا على عبد الملك فى سنة ٧٥ هـ واستخلف على مصر زياد بن حناطة بن سيف التجيبى صـــاحب شرطته حينئذ ، ولما توفى زياد بن شناطة فى شوال سنة ٧٥ هـ استخلف عبد العزيز على مصر الأصبغ ابنه حتى قدم عبد العزيز الى الفسطاط فى أول سنة ٧٦ هـ . وهذا يوضح لنا انتظام البريد وأهميته فكان أمير مصر على علم بكل مايجرى فيها من أحداث هامة وهو بعيد عنها .

ومن الراجح أن عبد العزيز بن مروان كان يقـوم أحيانا بالطواف على بعض المدن أو الأقاليم فى مصر . ويذكر الكندى أنه زار الاسكندرية أربع مرات ، فخرج اليها فى سنة ٧٤ هـ واستخلف على العاصمة ابنه الأصبغ ثم عـــاد فاستخلف عليهـــا جناب بن مرثد صاحب الحرس والأعوان . ويذكر الكندى أن عبد العزيز بن مروان خرج الى الاسكندرية مرة ثالثة فى سنة ٨١ هـ وفى هذه المرة الثالثة خرج مع عبد العزيز الى الاســـكندرية وجوه النـــاس من الأشراف والشعراء . وأشار ابن قيس الرقيات الى هذه الزيارة شعرا ويتبين مما ذكر أن الذهـــاب الى الاســـكندرية كان بطريق الســـفن فى النيل (١) .

ولا نعرف مما ذكره الكندى .. اذا كان خروج عبد العزيز بن مروان الى الاسكندرية فى سنة ٧٤ هـ هو زيارته الأولى أو الثانية

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٣

لها • ثم خرج عبد العزيز الى الاسكندرية للمرة الرابعة فى سنة ٨٣ هـ •

والمعروف أن الاسكندرية كانت تعتبر منذ العهد اليونانى فى مصر حتى الفتح العربى جزءا مستقلا عن مصر • ويظهر أنها فى العصر الاسلامى ؛ وبعد انقضاء الخلافة الأموية ؛ كان حاكمها شبه مستقل عن والى مصر • ويؤكد ساويرس بن المقفع ؛ مؤرخ « سير الآباء البطاركة » فى مناسبات مختلفة ما نستشفه من سائر المصادر من أن الاسكندرية منذ العهد اليونانى حتى عصر الاخشيديين فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ، كانت تعتبر فى معظم الأحيان جزءا مستقلا عن مصر حتى فى القضاء • وبهذه المناسبة عندما وصل الى الأمير أحمد بن طولون فى القرن الثالث الهجرى تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسى ، يذكر ساويرس أن هذا الأمر كان على خلاف ما جرت به العادة ، فانه لم يكن بين والى الاسكندرية ووالى مصر معاملة ولا « خطابات » بل كانا يتبادلان الهدايا فيما بينهما وكانا تحت سلطان واحد •

أى أن الاسكندرية كان لها شخصيتها حتى بعد الفتح العربى، وفى امارة عبد العزيز بن مروان ، وفى خلافة الأمويين ، حين كانت تتبع والى مصر ، لذلك اهتم المؤرخون بتدوين زيارات عبد العزيز ابن مروان الى الاسكندرية وأشادوا بها •

والمعروف أن اتخاذ العرب للفسطاط عاصمة لهم بعد الفتح أثر ، الى حد ما ، على مركز الاسكندرية وخاصة بعد أن فتح العرب الاسكندرية وهدموا جزءا من سورها وأجلوا سكانها الروم • لكن الاسكندرية سرعان ما أخذت تسترد ماكان لها من ازدهار ونشاط ؛ وبدأت دور صناعة السفن تستعيد نشاطها وتساهم فى صناعة السفن منذ خلافة عثمان بن عفان وولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، كذلك استأنفت مصانع النسيج نشاطها كما عاد للاسكندرية نشاطها التجارى القديم بين الشرق والغرب •

وكان والى مصر بعد الفتح ومنذ ولاية عمرو بن العاص الأولى عليها يشرف أحيانا على بلاد برقة وما يليها من شمالى افريقية ،اذ نجد اشارات كثيرة خلال المصادر القديمـة تبين سلطة والى مصر واشرفه على عمال برقة والمغرب وعلى الجيوش المرسلة الى هناك ٠ ففى ولاية عبد العزيز بن مروان وقع سوء تفاهم بينه وبين حسان بن النعمان الغسانى الذى قدم من الشام الى مصر فى سنة ٧٨ هـ ليتولى أمر المغرب ، ذلك أن عبد العزيز طلب منحسان ألايعرض لطرابلس ولكن حسانا أبى ذلك فعزله عبـد العزيز وولى موسى بن نصير أمر المغـرب كله ٠ كذلك نرى صالح بن على بن عبد الله العبـاسى فى ولايته الثانية على مصر (١٣٦ـ ١٣٧هـ) يولى أبا عون جيوش المغرب٠ على أن هذا الاشراف الذى كان لولاة مصر لم يمنـع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالها وولاتها ٠ ولكن كانت تضم برقة والمغرب أحيانا تحت سلطة والى مصر مبـاشرة فقد جمع لمسـلمه بن مخلد (٤٧ ـ ٦٢ هـ) أمر مصر والمغرب ، كما امتدت سلطة صالح بن على فى ولايته الثانية على مصر الى المغرب وفلسـطين ، ونجـد الخليفة أبا جعفر المنصور يضم الى والى مصر يزيد بن حاتم .(١٤٤ـ ١٥٢هـ) برقة بالاضافة الى مصر ٠

ونلاحظ أن ولاة مصر فى عهد الخلفاء الراشـدين والأمويين كانوا من العرب ، ولا عجب فقـد كانت الدولة حينئذ عربيـة فى سياذتها وسياستها ، وكان الاشراف السياسى والحربى والرياسة العليا للعزب دون سواهم من الشعوب المحكومة ٠ وقد أعطى الخلفاء الأمويون عمالهم على الولايات قسطا كبيرا من الحرية ، ولذا ظهر فى الدولة الأموية شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسـف الثقفى ، وخالد بن عبد الله القسرى ، وعبد العزيز بن مروان ، وموسى بن نصير وغيرهم ٠ ففى مصر نجد الخليفة معاوية بن أبى سفيان يولى عمرو بن العـاص صـلاة مصر وخراجها ويجعلها طعمة له بعد عطاء جندها والنفقة على ادارتها ،

فظل عمرو بن العاص فى ولايته الثانية على مصر من سنة ٣٨ هـ الى سنة ٤٣ هـ حين وفاته . وظل مسلمة بن مخلد واليا على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ ـ ٦٢ هـ) وتوفي وهو وال عليها . وكذلك ظل عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر حوالى احدى وعشرين سنة (٦٥ ـ ٨٦ هـ) وتوفى وهو وال عليها ، وكان عبد العزيز شبه ملك مستقل فى حكم مصر من مقره فى الفسطاط ـ أولا ، ثم من حلوان ثانيا ـ التى أمر ببنائها فى سنة ٧٠ هـ واتخذها عاصمة له . أما فى العصر العباسى فقد تأثرت مصر بالسياسة العامة للدولة ، ذلك أن العباسيين أشركوا غير العرب فى الحكم وساووهم بالعرب ففقدت القبائل العربية امتيازاتها ، وزال الفرق بين العرب وبين المسلمين من غير العرب، وكان السبب الرئيسى لذلك هو اعتماد العباسيين على الفرس فى دعوتهم وفى قيام دولتهم ، فأصبحت الدولة العباسية أشبه شىء بجامعة دول اسلامية ، بعكس ما كان عليه الحال فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى اذ كانت الدولة عربية بحتة . وقد احتل الفرس المناصب الرفيعة فى الدولة العباسية بعد أن كان استخدام الموالى فى الوظائف نادرا قبل ذلك. وحلت محل الأرستقراطية العربية طبقة من الموظفين أخذت من كافة العناصر التى دانت لسلطان الخلافة . أى أن الدولة العباسية لم تكن دولة عربية وانما كانت دولة جميع الشعوب الاسلامية ، ولم يكن العرب منها سوى عنصر من العناصر الكثيرة التى احتوتها الامبراطورية الاسلامية . ولذلك نلاحظ مجىء ولاة من الفرس الى مصر زمن الخلافة العباسية ، وكان آخر وال عربى على مصر هو عتبة بن اسحق الذى حكم بضع سنين فى نهاية عصر الولاة تقريبا (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ) . كذلك نلاحظ أن الخلافة العباسية سارت على سياسة الاعتماد على الأتراك والاستكثار منهم منذ زمن الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) وقد كان المعتصم من أم تركية ، ورأى فى الاتراك قوما يحبون القتال والحرب وليست لهم عصبية العرب ،

وليس لهم وطن قديم يريدون احياءه كالفرس ٠ولكن سرعان ماتغلغل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وأصبح بيدهم شئونها الحربية والمدنية ، وتأثرت مصر بذلك الاتجاه الجديد فى الدولة فوليها ولاة من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التركى (٢٤٢ – ٢٥٣ هـ) ٠

ونلاحظ فى العصر العباسى كثرة تغيير الولاة على عكس العصر الأموى ، وقد يكون هذا راجعا الى بعد مقر الخلافة العباسية ، أعنى بغداد وسامرا ، عن مصر فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاة مصر فى الحكم طويلا لئلا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد ، وقد يكون ذلك راجعا أيضا الى ضعف الخلفاء العباسين الحقيقى بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية وخاصة منذ عهد المعتصم ، ولذا سار هؤلاء الخلفاء على سياسة تغيير الولاة فى مدد متقاربة قصيرة كى لا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمكين لنفسه فيها ، كذلك استخدم الخلفاء العباسيون البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاة ٠ وهكذا نرى أن عبدالعزيز بن مروان والى مصر فى عصر كان النفوذ فيه للعرب دون غيرهم ، وكان نفوذ الولاة وسلطاتهم الادارية واسعة ٠ وكان عبد العزيز بن مروان يمثل سياسة الخلافة الأموية ، وفى الوقت نفسه يتصرف بحرية واسعة على غرار الولاة الأمويين الأقوياء فضلا على أن عبد العزيز بن مروان كان ولى عهد الخليفة عبد الملك بن مران وكان له كلمة مسموعة لدى الخليفة ٠

الفصل الرابع

عبد العزيز بن مروان ونظام مصر المالى

١ ـ الجزية والزكاة

٢ ـ الخراج والملكية العقارية

٣ ـ ضرائب الصناعة والتجارة

٤ ـ الضرائب الأخرى

٥ ـ الالتزامات أو الليتورجيا Leiturgia

٦ ـ نظام جباية الضرائب

٧ ـ النقود الاسلامية

١ ـ الجزية والزكاة :

كانـت الجزية من أهـم الضرائب فى مصر فى عصر الولاة ٠ والجزية بمعناها الدقيق هى ضريبة الرأس التى فرضها العرب على أهل الذمة وان كانت بعض المراجع القـديمة تعنى بالجزية ضريبة الرأس وضريبة الأرض معا ٠ وفرضت الجزية على أهل مصر بعد معاهدة نابليون الأولى ٠ وهاك نص ما ذكره المؤرخون : « فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحـوا على أن يفرض على جميـع من بمصر أعلاها وأسفلها (١) من القبط دينـاران عن كل نفس شريفهم ، ووضيعهم ، ومن بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شىء ٠٠ واحصوا عدد القبط يومئذ وخاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم (٢) بالأيمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيمـا أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس وكانت فريضتهم يومئـذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة » (٣) ٠ ويذكر البلاذرى (٤) فى رواية

---

(١) اعلاها : أى الوجه القبلى ، واسفلها : أى الوجه البحرى ٠

(٢) العريف : العالم بالشىء ، ومن يعرف أصحابه ، والجمع عرفاء ٠ ويذكر المستشرق دى ساسي ان عريف مقابلة للكلمة اليونانية « جرافس » أى كاتب ٠

(De Sacy, Silvestre : Recherches sur la nature et les révolutions du droit de propriété territoriale en Egypte (Le Caire 1923), p. 179.

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٠ ص ٦٣ ــ ٦٤ (طبعة المعهد الفرنسي) ، المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣

(٤) فتوح البلدان : ص ٢١٤ ؛ ليدن ١٨٦٦ م)

له عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه وضع على حالم دينارين جزية الا أن يكون فقيرا • ولا نفهم من هذا النص •• اذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أو قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم •

واذا استثنينا النص الذى ذكره البلاذرى بأن الفقراء لم يدفعوا الدينارين نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساووا فى دفع الجزية •

ونحن نستبعد ان يكون العرب قد ساووا بين جميع المصريين فى دفع الجزية • ولو كان العرب قد ساروا على هذه السياسة الظالمة لثار عليهم المصريون من أول الفتح ، ولكان العرب قد عادوا بذلك الى تعسف الحكم الرومانى والبيزنطى الذى كان يعفى ذوى الثراء والنفوذ من الأعباء الماليه أو من أغلبها على حين يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان • كما أن هذا لا يتفق وسياسة العرب الحكيمة التى كانت ترمى الى التحبب الى أهل البلاد والى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف وانما بحسن السياسة •

وقد أيدتنا الأوراق البردية فيما نذهب ونفت ما ورد فى الكتب القديمة من القول بمساواة الذميين فى دفع الجزية ، وأثبتت أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص • ففى كتاب من قرة بن شريك الى صاحب كورة أشقوه ، نجده يأمره بأن يرسل كشفا بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فى كل مكان ، والجزية الواجب عليهم أداؤها ومايملكه كل رجل من الأراضى ومايقوم به من الأعمال، ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيرا حسنا ومعاقبة من يحيد عن طريق العدل •

ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع نفس مقدار الجزية لما طلب والى مصر كشفا بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وبالجزية الواجبة عليهم ، ولما طلب من صاحب الكورة

أن يكون عادلا فى عمله ، ولما هدده اذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء من جانب أهل كورته، ولاكتفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم.

وقد حفظت لنا أوراق البردى أيضا كشوفا من القرن التالث الهجرى دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكر فيها مقدار الجزية الواجبة على كل فرد ،وقد اختلفت هذه الجزية باختلاف كل شخص ، وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية ، فشخص يدفع دينارا ، وثان دينارا ونصف دينار ، وثالث يدفع ثلثى دينار، ورابع يدفع دينارا وثلثا وهكذا .

وأما الفقهاء المسلمون فيجمعون على أنه كانت هناك ثلاث فئات بخصوص الجزية فيؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ومن الوسط أربعة وعشرون ، ومن دون الوسط اثنا عشر درهما . وطبيعى أن كلام الفقهاء يوحى الينا ــ بعكس كلام المؤرخين ــ بأن تقدير الجزية كان فيه شىء من العدل وان لم يكن العدل كله . فقد نستطيع تقسيم فئات الشعب الى ثلاث طبقات بصفة عامة ولكن من الطبيعى أن هناك اختلافات وفروقا كثيرة فى الثروة والامكانيات بين أفراد الطبقة الواحدة . وعلى أية حال فان كلام الفقهاء كان فى معظم الأحيان نظريا لا يعدو أن يكون أمانى وأملا فى السير نحو المثل العليا ، فالفقهاء هنا يؤيدون فكرة تقدير الجزية على حسب ثروة الشخص بصفة عامة .

والواقع أن العرب لم يحددوا قيمة الجزية على أهل الذمة فى مصر ، وانما اكتفوا بفرضها عليهم كما يظهر ذلك من نص معاهدة نابليون الأولى .

ويذكر المؤرخون أن صاحب اخنا قدم على عمرو بن العاص

وقال له: « اخبرنا ما على أحدنا من الجزية ... فقال عمرو وهو يشير الى ركن الكنيسه : لو أعطيتنى من الارض الى السقف ما اخبرتك ما عليك انما أنت خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خففت عنا حققنا عنكم » أى ان تقدير الجزية فى مصر ترك للوالى أو الخليفة . كذلك روعي في الجزية تناسبها مع ثروة الشخص كما ثبت من اوراق البردى التى ترجع الى هذا العصر . وكانت الجزيه فى مصر تدفع بالدنانير وكسورها . ويظهر من المصادر المختلفة أن سياسة الخلفاء بوجه عام كانت ترمى الى استغلال مصر استغلالا منظما وان اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال ، اذ بينما نرى بعض الخلفاء ، أو ولاتهم ، يشتط فى جمع الضرائب نرى البعض الآخر يرى أن من مصلحة الراعى أن يقص صوف غنمه وليس من مصلحته أن يسلخها ، وحسبنا أن نشير فى هذه المناسبة الى ما ذكره الماوردى (١) من أن الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراق كتب الى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى أخذ الفضل من أموال السواد (٢) فمنعه من ذلك وكتب اليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما » وهذا المثل يرينا كيف كانت سياسة هذا الخليفة ترمى الى عدم تحميل البلاد فوق ما تحتمل لكيلا يجف معينها ويؤثر ذلك على مالية الدولة .

ويظهر أن المورد المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية . ولذا كانت الجزية سببا فى اسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها وهذا طبعا معناه نقص فى دخل الدولة . وربما حدا هذا بالخلفاء الى مضاعفة مقدار الجزية على من بقى من الأقباط على

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٣ (القاهرة ١٢٩٨ هـ)

(٢) السواد يعنى العراق

دينه حتى لقد قيل ان الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) أرسل الى حيان بن سريج عامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على احيائهم (١) • واذا كان هذا النص صحيحا ، واذا كان الأقباط الاحيـاء يكلفون جزية من مات منهم فلا نستبعد أن يجعلهم الخلفاء يتحملون جـزية من أسلم منهم • ولا نسـتطيع أن نعرف بالتقريب نسبة نقص الجزية بسبب اعتناق الأقباط الدين الاسلامى لأن المؤرخين ، كثيرا ما يجمعون بين الجـزية والخـراج ، فيقال ان عمرو بن العاص جبى من مصر ١٢ مليون دينار ، وجباها عبد الله ابن سعد بن ابى سرح فى خلافة عثمان بن عفان ٢٤ مليون دينار• وقد سر عثمان بن عفان من ذلك وعاتب عمرو بن العـاص فى هذه الكلمات : « يا أبا عبـد الله درت اللقحة بأكثر درها الأول » فقال عمرو : « أضررتم بولدها » ويذكر آخرون أنه قال : « ذلك ان لم يمت النصيل » ويذكر المقريزى أن الذى جباه عمروثم عبد الله انما هو من الجماجم (٢) خاصة دون الخراج • وعندما زاد التحول الى الدين الاسلامى بلغ خراج الأرض مع جزية الرءوس فى أيام معاوية ابن أبى سفيان خمسة ملايين دينار ، وبلغ فى أيام هرون الرشيد أربعة ملايين دينار ، وبعد ذلك أصبح مايجبيه الخلفاء حوالى ٣ ملايين دينار (٣) اذا استثنينا فترات معينة • ونلاحظ أن انتفاع مصر بدخلها فى العصر الأموى كان أكثر منه فى العصر العباسى لأن الولاة كانوا أكثر استقرارا من ولاة العصر العباسى• أمافى العصر العباسى فقـد اضطربت الأحوال الماليـة وذلك لـكثرة تغيير الولاة وبسبب اقطاع مصر لبعض قواد الترك أو أوليـاء العهد فكان هم الوالى جمع

---

(١) ابن عبد الحـكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٤ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٧

(٢) يقصد بالجماجم هنا جزية الرءوس •

(٣) اليعقوبى : البلدان • ص ٣٣٩ (ليدن سنة ١٧٩٢ م)

ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولا وللخلافة أو لصاحب الاقطاع ثانيا •

وقد عرفنا أن عبد الملك بن مروان كان من سياسته عدم ابتزاز الاموال من البلاد المفتوحة حتى تستطيع أن تنتج وبذلك يكون انتفاع الخلافة منها منظما وعلى حسب خطة سليمة• وكان عبدالعزيز ابن مروان يمثل سياسة الخلافة فى مصر • كذلك كان عهد عبدالعزيز ابن مروان فى مصر عهد رخاء ويسر ، فقد اهتم بترقية شئون البلد وأدخل فيها اصلاحات كثيرة • وفضلا عن هذا فقد عرف عبدالعزيز بالجود والكرم وكان يقول : « واعجبا من مؤمن يوقن أن الله يرزقه، ويوقن أن الله يخلف عليه ، كيف يدخر مالا عن عظيم أجر أو حسن سماع » (١) • ويقال انه كان لعبدالعزيز بن مروان ألف جفنة (٢) كل يوم تنصب حول داره ، وكانت له مائة جفنة تحمل على العجل ويطاف بها على قبائل مصر • وفى ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم أضحى
عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات
كل يوم تمدها ألف قدر (٣)

وفى كرمه يقول الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات :

ذاك ابن ليلى عبد العزيز ببا
ب اليون تغدو جفانه رذما (٤)

ولا ريب أن مثل هذا الشعر وغيره يشهد بما كان له من جود

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٥ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م)

(٢) الجفنة : القصعة الكبيرة ، الجمع جفن وجفان وجفنات

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥١ — ٥٢

(٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٧ ص ١٧٨

وافر على ما فيه من مبالغة صريحه ليست غريبة عند المؤرخين فى العصور الوسطى .

وقد بنيت كنائس عدة فى عهد عبد العزيز بن مروان ، كذلك جدد عبد العزيز بناء المسجد الجامع وزاد فيه ، كما انفق مالا كثيرا فى بناء مدينة حلوان ، يقال انه بلغ مليون دينار . وقد زيدت أعطيات الجند فى عهده كما اشتركت مصر فى القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير . وتطلب هذا كله كثرة الانفاق والأموال الكثيرة حتى قيل ان عبد العزيز بن مروان كان يجبى اخراج مصر اسبوعيا خوفا من فتنة تنزل به يحتاج فيها الى المال ، ولم يزل على ذلك حتى قتل عبد الله بن الزبير وتم الأمر لعبد الملك بن مروان (١) .

وكانت نتيجة حاجه هذا الوالى الى المال ان اتجه الى شىء لم يتجه اليه أحد من قبل ، فأمر باحصاء جميع الرهبان فى كل الكور وفى وادى النطرون وسائر الأماكن وفرض دينارا جزية على كل راهب وأمر ألا يترهب أحد بعد من أحصاه . وكانت هذه أول ضريبة ، أو أول جزية ، أخذت من الرهبان فى مصر . ويذكر ساويرس بن المقفع مؤرخ « سير الآباء البطاركة » أن عبد العزيز ابن مروان ألزم أساقفه الكور أن يؤدوا ألفى دينار سنويا بالاضافة الى خراج أملاكهم ، ويذكر أن بنيامين الشماس الراهب الذى كان مصاحبا للأصبغ بن عبد العزيز بن مروان هو الذى كان يحرضه على كل هذه الأمور .

ونحن نعلم أن الرهبنة كانت منتشرة حينئذ ، وساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن الرومان ، ففضل الكثيرون أن يعيشوا فى عزلة عن العالم منفردين أو جماعات فى

---

(١) سعيد بن بطريق (المعروف باسم أوتيخا) : كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢ ص ٤١ (بيروت ١٩٠٥ – ١٩٠٦ م) ، :

Wiet, Gaston :
L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV), p. 47.

أديرة • ولما كان الراهب لا يملك شيئا ويعيش فى عزلة عن العالم، لذا لم تفرض عليه أى ضريبة • على أن الأديرة التى كانت تزداد كثرة على مر الأيام ما لبثت أن وقف عليها أملاك كثيرة وزادت ثروتها • ولكن الحكومة فى عهد الرومان والبيزنطيين أعفتها من الضرائب بل كانت تدفع لها قدرا معينا من المال (١) •

ولما فتح العرب مصر حافظوا على ما كان موجودا قبلهم من التقليد الذى يحرم فرض أية ضريبة او جزيه على الرهبان • وبذلك وجدت تحت حكم العرب من أول الفتح طبقة ممتازة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية ، وقد لجأ كثير من الأقباط الى هذه الأديرة كى يتخلصوا من الضرائب • ولكن حكومة عبد العزيز بن مروان فطنت الى هذا الأمر وخصوصا بعد ما زادت الأعباء المالية على الحكومة • ولذلك بادر عبد العزيز بن مروان الى الأمر باحصاء الرهبان وفرض جزية سنوية عليهم • ولعل ولاة مصر منذ عهد عبد العزيز بن مروان كانوا يحاربون الرهبنة لأنها تحرم البلاد الأيدى العاملة • كذلك نلاحظ ان الرهبان كانوا يبغضون الولاة لأنهم كانوا يفلتون فى البداية من دفع الجزية الى أن بدأ عبد العزيز ابن مروان سنة فرض الجزية عليهم • وهذه العداوة بين الرهبان والولاة تفسر تعصب المؤرخين والكتاب المسيحيين فى ذلك العصر ـ وجلهم من الرهبان ـ ضد الاسلام والحكومة الاسلامية •

وعرفت الجزية فى أوراق البردى المكتوبة باليونانية باسم دمزيا •

الزكاة :

وكما كانت الجزية تجبى من أهل الذمة كان يجبى من المسلمين الزكاة أو الصدقة • ويقول المقريزى (٢) ان أول من جبى

---

(١) Munier : L'Egypte Byzantine, p. 77 (Précis de l'Histoire d'Egypte, T. II, Le Caire 1932).

(٢) الخطط ج ١ ص ١٠٨

الزكاة بمصر السـلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب • ونحن نستبعد هذا القول وعهدنا قريب بأبى بكر الصديق الذى أصر على جمع الزكاة من المرتدين الذين امتنعوا عن دفعها واعتقدوا أنهـا اتاوة كانت تدفع للرسول • ولم يتوان أبو بكر الصديق عن محاربة هؤلاء المرتدين فى وقت كان أحرج ما يكون بالنسـبة للاسـلام والمسلمين ولم يهدأ أبو بكر بالا حتى انتصر على المرتدين جميعا •

وقد أيدتنا الأوراق البردية التى كشفت فى مصر فى ذلك القول • اذ تبين من هذه الأوراق أن الولاة فى مصر كانوا يقومون بجباية فريضة الزكاة ويتسـلم الأهالى ايصالا أو براءة بعد تأدية ما يجب عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الاسـلامية • ولدينـا ايصال يرجع الى القرن الثانى الهجرى (سنة ١٤٨ هـ) عن زكاة بعض الأشخاص (١) •

(١) Grohmann : Arabic Papyri, Vol. III, p. 177, (Cairo 1938).

٢ ـ الخراج والملكية العقارية :

قبل أن نتعرض للكلام على ضريبة الارض ، أو الخراج ، يجدر بنا أن نعرف موقف الفاتحين العرب ازاء أراضي المصريين • وهنا يعترض الباحث سـؤال طالما واجه المؤرخين الأقدمين والمحدثين ، وهو : « هل فتحت مصر صلحا أو عنوة ؟ » وذلك لأن الأراضي التى تفتح صلحا تكون فيئا (١) أو غنيمة للمسلمين • فاذا كانت مصر فتحت صلحا ، بدون قتـال وبمقتضى عهـد ، اتفق المصريون مع الفاتحين على مقدار الجزية والخراج الذى يدفع لهم دون أن يمس الفاتحون أراضى المصريين أو يأخذوها منهم عنوة أو قهرا •

أما الأراضى التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة وتقسم بين الفاتحين طبقا للآية الكريمة (واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعـان واللـه على كل شيء قدير) (٢) ، فالخمس الذى لله عز وجل مردود من الله تعالى على الذين سمى الله (للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع فى غيرهم ، وذلك الى الامـام يضـعه فيمن حضره منهم بعـد أن يجتهـد رأيه ويتحرى العدل ، وما بقى بعد الخمس فهو للذين غلبوا عليه من المسلمين يقسم بينهم بالسوية (٣) • فاذا كانت مصر فتحت عنوة

---

(١) الفيء :هو ما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج (انظر : يحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٣ ـ طبعة ليدن ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ م)

(٢) سورة الأنفال آية ٤١

(٣) يحيى بن آدم القرشى : ص ٣ ـ ٤

فانها تصبح غنيمة للفاتحين كما بينا وتخرج أراضى المصريين من أيديهم ولا يكون لهم أى حق فيها • ولذا وجب أن نعرف هل فتحت مصر صلحا أو عنوة ، لنرى أى الأحكام طبقت عليها فيما يختص بالأراضى • وقد اختلف الأمـر على المؤرخين فى ذلك ، مثـل ابن عبدالحكم فى كتابه « فتوح مصر وأخبارها » ، والمقريزى فى كتابه « الخطط » ، وأبو المحاسن ابن تغرى بردى فى كتـابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، والسيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » • فنرى المؤرخ الواحد منهم يكتب أن بعض الرواة ذكر أن مصر فتحت عنوة ، والبعض ذكر أنها فتحت صلحا ، وفريق ثالث قال انها كلها فتحت صلحا الا الاسكندرية أو الاسكندرية وبعض قرى الوجه البحرى فانها فتحت عنوة • فالرواة الذين أخذ عنهم هـؤلاء المؤرخـون والذين قالوا ان مصر فتحت صلحـا الا الاسكندرية يبررون نظريتهم بأن حصن بابليون الذى حدد فتحه مصير مصر السياسى ــ فتح صلحا لا عنوة بمقتضى المفاوضات التى جرت بين المقوقس وعمرو بن العاص ، ويثبتون نظريتهم بأنه كان للمصريين عهد بينهم وبين العرب ، وأن الاسكندرية فتحت صلحا فى الفتح الاول ، ولكن لما انتقض الروم سنة ٢٥ هـ فتحها العرب عنوة وقهرا • والفريق الذى يقـول ان مصر فتحت عنـوة يثبت نظريته بأنه لم يكن للمصريين عهد ولا عقد • وهنالك فريق وسط يقول ان مصر فتح بعضها صلحا والبعض الآخر عنوة كالاسكندرية وبعض القرى التي ظاهرت الروم على العرب •

على أنه مهما اختلفت آراء هؤلاء المؤرخين فانهم لم يختلفوا فى أن مصر أجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحا • وقد ذكرت قبل ذلك أن صلح بابليون حدد مصير مصر السياسى ، أى أن مصر فتحت عنوة وفى الوقت نفسـه قبل العـرب أن يمنحوا المصريين عهدا ، فالعـرب فى الواقع كانوا يعتبرون أنفسـهم محـاربين للروم لا المصريين • كما أنه عندما فتح العرب الاسكندرية سنة ٢٥ هـ

عنوة كان فتحها انتصارا على الروم وعلى قائد الامبراطور قنسطانز الثانى ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى أعطى العرب المصريين اياه .

وجاء فى نص الصلح الذى أعطاه عمرو بن العاص أهل مصر . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص » (١) .

وورد أيضا نص آخر أنه من الشروط التى اصطلح عليها أهل مصر مع الفاتحين أن تكون « لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شيء منها » (٢) .

وهكذا نرى أن العرب أبقوا أراضى مصر على حالها ولم يتعرضوا لها بالرغم من فتحهم لمصر عنوة ، وذلك بناء على العهد بينهم وبين المصريين وهذا مما يجيزه الفقهاء للفاتحين ويفسرون ذلك بأن « الغنيمة جميع ما أصابوا من شيء قل أو كثر حتى الابرة الا الأرضين ، فان الأرضين الى الامام ، ان رأى أن يخمسها ويقسم أربعة أخماسها للذين ظهروا عليها فعل ذلك ، وان رأى أن يدعها فيئا للمسلمين على حالها « أبدا » فعل بعد أن يشاور فى ذلك ويجتهد رأيه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضيين فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه » (٣) .

ولا ريب فى أن الخليفة عمر بن الخطاب أظهر حكمة بالغة باتباعه تلك السياسة وهى عدم تقسيم الأراضى بين الفاتحين ولا سيما أنه لم يفعل ذلك فى مصر وحدها بل فى العراق والشام.

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة المعهد الفرنسى) ص ٦٤ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

(٣) ابن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٤ ــ ٥

فانه لم يرد أن يشغل جنده بالزراعة والأراضى على حين الجهاد يناديهم فى كل مكان ، كما أن العرب فى جملتهم لم يكونوا أمة زراعية • ومن جهة أخرى رأى عمر بن الخطاب ألا يثير عليه سخط أهالى البلاد المفتوحة حتى يعاونوه على تثبيت سلطان المسلمين ، كما أن أهل مصر وغيرها كانوا اعلم بزراعتهم وريهم ، ولابد أن عمر كان يسترضى جنده ويعوضهم عن امتلاك الأرض بمنحهم الأموال والغنائم الأخرى غير الأرض . ولعل أبلغ مثل يرينا سياسة عمر بن الخطاب ازاء الأراضى المفتوحة من حيث عدم تقسيمها بين الفاتحين ذلك الكتاب الذى بعث به الى سعد بن أبى وقاص حين فتح العراق يقول فيه : « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم فاذا اتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به الى العسكر من كراع (١) ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضيين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء » (٢) وهكذا نرى أن العرب أبقوا أراضى المصريين على حالها . أما ما كانت عليه الملكية العقارية فى مصر زمن الفتح فالمعروف أن الغزوات الاجنبية التى توالت على مصر كانت سببا فى اضعاف الملكية فيها اذ كان الغزاة ينتزعون الأراضى من الأهالى أو يمنحونهم حق الانتفاع فحسب • وفى عهد الرومان وخاصة منذ القرن الثانى للميلاد نرى زيادة ملحوظة فى الأراضى التى يمتلكها المصريون وكان أصحاب هذه الأراضى يؤدون ضريبة عقارية للدولة (٣) •

---

(١) الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٣ — ١٤ طبعة بولاق ١٣٠٢ هـ) وابن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ١٣ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٣) Jouguet : L'Egypte Gréco-Romaine, p. 348 (Précis de l'histoire d'Egypte, T. I).

وذكر المستشرق السويسرى Max van Berchem (١) ان عمر ابن الخطاب حول الاراضى التى فتحت خارج جزيرة العرب الى اراضى وقف متبعا فى ذلك ما اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام بشأن بعض أراضى جزيرة العرب • وكأن عمر أراد بتحويله الاراضى المفتوحة الى أراض موقوفة أن يضمن للجماعة الاسلامية فى عهده وفى المستقبل أملاكا عامة لا يتصرف فيها ، وانما يديرها الخلفاء لصالح الجماعة الاسلامية . على انه لا يمكننا قبول نظرية الوقف هذه فيما يتعلق بمصر • فاذا كانت الاراضى قد صارت وقفا فى هذه البلاد كان ذلك معناه أن العرب منحوا المصريين حق الانتفاع بها فحسب • ولكن صلح بابليون قد أقر أراضى المصريين على حالها وامنهم عليها . ونحن لا نستطيع الجزم بأن المصريين كانوا يملكون حق الانتفاع فحسب قبل الفتح ، وخصوصا أنه وجدت ملكيات تامة زمن البطالة وزادت تلك الملكيات فى عهد الرومان . كذلك تدل الأوراق البردية التى ترجع الى عصر الولاة على أنه كان يحق لأهالى مصر التصرف فى الأراضى التى يملكونها بالبيع والشراء والتوريث والهبة ، وهذا طبعا مما ينقض نظرية الوقف.

وقد فرض العرب على أراضى المصريين ضريبة عقارية تعرف بالخراج . ونعرف مما ورد فى أوراق البردى ومما ذكره المؤرخون أن الخراج فى مصر كان يجبى عينا ونقدا ، ففى كتاب من قرة ابن شريك سنة ٩١ هـ الى أهل شبرا بسيرو من كورة أشقوه ، نجده يطلب منهم دفع متأخرات الجزية عليهم بالدنانير ودفع ضريبة الطعام قمحا (٢) ، وضريبة الطعام هنا تعنى الخراج أو

(١) Van Berchem, Max : La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les Premiers Califes, (Genève 1886), p. 23.

(٢) Becker, C.H. : Neue Arabische Papyri des Aphrodito-fundes (Der Islam II., Strassburg 1911), p. 267, Grohmann : Arabic Papyri, Vol. III, p. 48.

جزءا منه . كذلك حفظ لنا ورق البردى ايصالا عن خراج سنة ٢٣٣ هـ دفعه بعض الاشخاص ويتبين منه أن الخراج دفع نقدا. وفي كتاب آخر من قرة بن شريك الى صاحب أشقوه نجده يطلب منه أن يرسل اليه القمح المفروض على أهل كورته ، ويخبره أنه اذا وجد الأهالى صعوبة فى دفع الضريبة غلة فلا بأس من دفعها نقدا ، ويحدد له ما يعادل عددا معينا من الأرادب نقدا ، ولكنه يطلب منه أن يعمل على ارسال القمح لا النقود .

ويذكر البلاذرى فى رواية له عن عبد الله بن عمر بن العاص أنه جعل على كل جريب (١) دينارا وثلاثة أرادب طعاما . وفى رواية أخرى للبلاذرى عن يزيد بن أبى حبيب أن أهل الجزية بمصر صولحوا فى خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل والنحل على دينارين دينارين ، فألزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه . ويذكر اليعقوبى (٢) ان عمرو ابن العاص جبى من مصر أربعة عشر ألف ألف دينار من خراج رءوسهم (٣) لكل رأس دينار وخراج غلاتهم من كل مائة أردب أردبين .

أى أن الجزية كانت تدفع نقدا على حين كان الخراج يدفع عينا ونقدا . وكان يطلق على الضريبة التى تدفع عينا فى أوراق

---

(١) الجريب : وحدة تقاس بها الارض وقدره الماوردى فى الاحكام السلطانية بعشر قصبات فى عشر قصبات . (الفدان الحالى يساوى ٣٣٣ قصبة مربعة) ويقول الأب انستاس مارى الكرملى فى كتابه النقود العربية وعلم النميات ص ٣١ أن أهل البصرة يعرفون الجريب الى عهدنا هذا وهو عندهم نحو من مائة نخلة ، ومن غير النخيل أرض سعتها هكتار . (الهكتار ١٠٫٠٠٠ متر مربع)

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٧٦ - ١٧٧) طبعة هوتسما - ليدن ١٨٨٣)

(٣) يعنى بخراج الرءوس هنا الجزية .

البردى العـربية اسم « ضريبـة الطعـام » أما فى اوراق البردى اليونانية فكانت تعرف باسم « امبوليه » • ويجـدر أن نشير هنا الى أن القمح كان أهم مايجبى من ضريبة الطعام ، ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحيانا غير الغلال ، الزيت والعسل وأنواع الطعام الأخرى • وكان يصرف من المال الذى يجبى « عطاء » الجند المرابط فى مصر ، كما ان « أرزاق » الجند فى مصركانت تعتمد على ضريبة الطعام .

وكان الخراج فى مصر يجبى على أسـاس مسـاحة الأراضى التى يمتلكها الشخص كما كان الحال فى عهد الرومان والبيزنطيين. على أنه كان يراعى فى ذلك حالة فيضان النيل فى كل عام ، لارتباطه بالزراعة ، وقد وضح ذلك تماما من نص صلح بابليون الأول الذى أعطاه عمرو بن العاص أهل مصر • كذلك كان يراعى فى تقدير الخراج كمية المحصول التى تنتجها الأرض .

وكانت الضرائب التى ترسلها مصر الى الخلافة عقب الفتح نقدية وعينية . وبدأت مصر بعد الفتح ترسل القمح الى المدينة عاصمة الخلافة ، والمعرف أن عمر بن الخطاب كتب فى سـنة ٢١ هـ الى عمرو بن العاص يعلمه ما فيه أهل المدينة من الشدة ، ويأمره أن يبعث اليها ما يجمع من الطعام فى الخراج فكان ذلك يحمل اليها ومعه الزيت وانقطع فى فتنة عثمان بن عفان ثم حمل فى أيام معاوية ويزيد ، ثم انقطع الى زمن عبد الملك بن مروان ثم لم يزل يحمل الى زمن الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور . ومن ذلك نرى أن مصر بدأت تمير الحجاز عقب الفتح مباشرة وكان ينقطع ذلك المورد أيام الفتن والثورات . وذكر البلاذرى أن الطعام ظل يرسل الى خلافة أبى جعفر المنصور ، والمقصود هنا أنه ظل يرسل الى زمن أبى جعفر عن طريق البحر ، وذلك لأن أبا جعفر أمر بطم خليج أمير المؤمنين الذى كان يخرج من النيل عند مصر الى السويس عن طريق وادى طميلات فى شرقى الدلتا .

وكانت الغلال ترسل أولا الى المدينة بوصفها مقر الخلافة، .
وظلت الغلال ترسل الى المدينة حتى بعد أن انتقلت حاضرة الخلافة الى الكوفة زمن على بن أبى طالب ، والى دمشق زمن الأمويين ، والى بغداد وسامرا زمن العباسيين . بل ان ارسال الغلال الى الحجاز لم يبطل الى يومناهذا ـ اذا استثنينا فترات معينة ـ بالرغم من التغيرات السياسية التى حدثت فى مصر وفى الخلافة نفسها .

ولدينا بعض النصوص التي تشير الى مقدار ما كان يرسل نقدا الى بيت المال فى مقر الخلافة . فيقال انه فى زمن معاوية ابن أبى سفيان أرسل واليه على مصر مسلمة بن مخلد (٤٧ ـ ٦٢ هـ) ستمائة ألف دينار الى بيت المال بعد أن دفع عطاء الجند وانفق على البلاد ما تحتاج اليه وبعد ارسال القمح الى الحجاز .

ونلاحظ أنه وجدت فى مصر منذ الفتح العربى أراض امتلكتها حكومة العرب . فقد كان هنالك قبل الفتح اراض يمتلكها الأباطرة امتلاكا خاصا غير تلك الأراضي التى كان يمتلكها سائر أفراد الشعب سواء أكانوا من الروم أم من المصريين . فهذه الأراضى التى كانت ملكا خاصا للأباطرة ، أو التى هرب أهلها أو هلكوا زمن الفتح ، لابد أنها آلت الى الخليفة ، وارث الأباطرة فى مصر ، فكان له حق التصرف فيها وكان تصرفه هذا لا يمس حقوق الأهالى ولا ينقض الصلح الذى أعطاه العرب المصريين .
وكانت حكومة العرب تتبع فى الانتفاع بالضياع التى استولت عليها طريقة الاقطاع . وقد زادت هذه الضياع التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف اليها من الموات (١) أو الأرض المهجورة agri deserti فى أثناء الحكم العربى نفسه .

وتذكر النصوص والروايات التاريخية أن عمر بن الخطاب

---

(١) الموات : بعكس العامر من الارض ، اى الارض التى تحتاج الى تعمير واصلاح

أقطع ابن سندر أحد الصحابة ـ منية الأصبغ (١) بمصر فحاز لنفسه منها الف فدان ولم تزل له ان مات • واشتراها بعد ذلك الأصبع بن عبدالعزيز بن مروان من ورثته واشتهرت باسم منية الأصبغ ويقال انها كانت أقدم وأفضل قطيعة بمصر •

ونلاحظ هنا أن نظام الاقطاع بدأ فى عصر الولاة ولكن بدءه وتطوره يختلفان عن نظام الاقطاع فى الغرب لأن من العوامل الأساسية فى نشأة الاقطاع فى الغرب وفى أسباب منحه رغبة الأمير أو الملك فى أن يحصل على عون حربى ممن دونه من الأمراء والأشراف على حين لم يدخل العنصر الحربى فى نظام الاقطاع الاسلامى فى مصر الا فى نهاية العصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك ، ودخل بأسلوب آخر ، يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الاقطاعات المختلفة بغير منحهم الأراضى للاقامة فيها وزراعتها . كذلك لم يوجد فى الاقطاع بمصر حق الوراثة الذى كان يتمتع به أصحاب الاقطاع فى أوربا •

ولم يكن المسلمون يدفعون خراجا عن الأراضى التى امتلكوها ، انما كانوا يدفعون عنها العشر زكاة كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى . ويذكر الفقهاء أن الأرض الموات أرض عشر أيضا ، أى من يجبيها يدفع العشر ولا يؤدى عنها خراجا . ولكن حدث بمرور الزمن أن انتقل جزء كبير من الأراضى فى البلاد المفتوحة الى أيدى العرب ، وأصبحوا يؤدون عنها العشر وهو الضريبة الواجبة على المسلم ، وهو غالبا أقل من ضريبة الخراج . ومن ناحية أخرى دخل كثيرون من أهل الذمة فى الاسلام . ولما كان المسلم العربى لا يدفع فى بادىء الأمر غير الزكاة أو العشر أو الصدقات ، فقد استغل المسلمون المستجدون هذا الامتياز وأعفوا من الجزية والخراج . وبالاضافة الى ذلك فان كثيرين

---

(١) كان لفظ منية شائعا فى مصر وكذلك شاع فى الاندلس ، والمنية ضيعة تنشأ حول قصر ريفى ينشئه الملك الكبير ، وكانت الاصبغ تقع شمال القاهرة ، وموقعها الحالى قريب من ضاحية الدمرداش

من هؤلاء المسلمين الجدد - ولا سيما أهل العراق وخراسان الذين كانوا يعملون فى الزراعة - أخذوا يهاجرون الى المدن للعمل فيها أو للالتحاق بالجيوش الاسلامية . وأدى ذلك الى خسارة مزدوجة عانتها الخزينة ، فان الضرائب التى كانت تفرض عليهم قد خفضت بعد اعتناقهم الاسلام ، كما أنهم أصبحوا جنودا يتناولون من بيت المال عطاء ، ولو أن الموالى فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية - باستثناء خراسان - كانوا يقبضون عطاء أقل مما كان يدفع للمحارب العربى . وهكذا قل دخل الدولة على حين زادت نفقاتها بسبب الحروب والمنشآت والتعمير والاصلاح .

واتجه الولاة الأمويون الى علاج هذه المشكلة . وكان الحجاج ابن يوسف الثقفى أمير العراق أول من حاول معالجة هذه المشاكل الصعبة بطريقة عملية جدية ولا سيما بعد أن جاءه النذير من عماله بأن « الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار » (١) . ولذا نرى الحجاج يحاول جهده حل المسألة المالية وتثبيت دخل الدولة فى المشرق ، ولم يراع فى سياسته رغبات العرب أو الموالى وانما اهتم بمصلحة الدولة العربية وقوتها ، ففرض الخراج على العرب الذين امتلكوا اراضى خراجية ، وفرض الجزية والخراج على الأعاجم الذين أسلموا وبقوا فى قراهم . وذهب الحجاج الى أن أهل الذمة الذين يعتنقون الاسلام انما يفعلون ذلك فرارا من الخراج والجزية ، فرأى أن يلزمهم بدفعهما برغم اعتناقهم الاسلام . وأثار ذلك عاصفة من الاحتجاج والمقاومة ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان أيد وجهة نظر الحجاج فنفذها فى العراق ، كما وافقه فى ذلك أمراء آخرون من أمراء الأمصار . والحق أن الحجاج لم يكن متجنيا فى رأيه الخاص باسلام معظم أهل الذمة حينئذ . ففى مصر يذكر ساويرس أسقف الاشمونين ومؤرخ « سير الآباء البطاركة » ،

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٨ ص ٣٥

أن كثيرا من الأقباط اسلموا ليتخلصوا من الجزية والضرائب المفروضة عليهم ، كما يذكر أن الاقباط الذين بقوا على دينهم قاموا بمقاومة سلبية ضد الحكومة ، تنطوى على الهروب من مكان الى مكان ، وهجر الأراضى الزراعية وذلك منذ خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ : ٧٠٥ – ٧١٤ م) وفى أثناء ولاية أخيه عبد الله بن عبد الملك (٨٦ – ٩٠ هـ) . ولم تكن حركة الهروب جديدة فى التاريخ المصرى فكثيرا ما كان الفلاحون يهجرون قراهم فى العصر البيزنطى فرارا من دفع الضرائب . واتخذت حركة الهروب فى مصر فى ولاية قرة بن شريك (٩٠ – ٩٦ هـ) شكلا واسعا ، فيذكر ساويرس أن أسرات بأكملها كانت تهرب من مكان الى مكان فرارا من دفع الضرائب . واضطر قرة ازاء هذا الى انشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة واعادة كل شخص الى موضعه . وظل قرة يقاوم تلك الحركة بنشاط الى أن توفى سنة ٩٦ هـ : ٧١٤م . ويؤيد كلام ساويرس ما استخلصناه من الأوراق البردية العربية واليونانية التى ترجع الى عهد هذا الوالى .

أما فى المشرق فانه لما حاول الأعاجم هجر قراهم الى المدن فرارا من سياسة الحجاج المالية أمر بارجاعهم الى قراهم وذلك حرصا منه على أن يظلوا فى الريف لزراعة الارض .

وسببت سياسة الحجاج المالية ضجة بين الموالى والعرب على السواء ونادوا بأنها منافية للاسلام ، ولكن الحجاج لم يأبه لكلامهم وأخذ فى تنفيذ سياسته التى مالبثت ان طبقت فى جميع أنحاء العالم العربى . والحق أن هذه « العملية » يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية لأن دخل الحكومة وماليتها يجب أن يكونا مستقلين الى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الاشخاص الدين الاسلامى ، أو شراء العرب

للاراضى الخراجية وما إلى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره فى ماليتها .

وفى مصر كتب الخليفة عبد الملك بن مروان الى عبد العزيز ابن مروان لينفذ سياسة الحجاج المالية ويضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلمه قاضى مصر ابن حجيرة — فى ذلك وقال: « أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر . فو الله أن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف تضعها على من أسلم منهم ؟ ».

ولم يقدم عبد العزيز بن مروان على تنفيذ هذه السياسة ولكنه اكتفى بفرض الجزية على الرهبان ،كما انه ألزم الأساقفة بأن يؤدوا قدرا معينا من المال سنويا بالاضافة الى خراج املاكهم .

ويذكر ساويرس بن المقفع فى مناسبات مختلفة أن التشريعات المالية الخاصة بالأقباط أو الأساقفة أو الرهبان أو البطرك كانت تصدر بايعاز من الأقباط ورجال الدين المسيحيين أنفسهم . وكانت حكومة العرب تفرض أشد العقاب على الرهبان أو رجال الدين الفارين من الضرائب ، كما كانت تتشدد فى جمع الجزية من الأقباط .

ونحن لا نعرف تماما متى بدأ تشريع أخذ الجزية ممن أسلموا فى مصر وان كان من المحتمل أن هذه السياسة بدأت فى مصر بعد عبدالعزيز بن مروان وقبل خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ : ٧١٧ — ٧١٩ م) بدليل أن أعفاء من يسلم من الجزية كان يترتب عليه اسلام الكثيرين .

وعلى أية حال فقد لجأ الولاة فى مصر بعد ولاية عبد العزيز بن مروان الى زيادة الجزية والى زيادة الخراج زيادة كبيرة .

ولا نعرف هل قرر عبد العزيز بن مروان فرض الخراج على الأرض التى يسلم مالكها كما فعل الحجاج أو أن هذه الخطوة اتخذت بعده أيضا ..

وحين ولى خلافة الدولة العربية ابن عبد العزيز بن مروان وهو الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد وفاة ابيه بنحـو اثنى عشر عاما ، التزم أسقاط الجزية عن الذين أسلموا وعن الذين يدخلون الاسلام . ونعرف أن حيان بن سريج ، متولى خراج مصر ، كتب الى عمر بن عبد العزيز يقول : « أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحـارث بن ثابتـة عشرين الف دينـار ، وتممت عطاء أهل الديوان (١) ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » . وكان حيان يرى أن تبقى الجزية على من يسلم . ولكن عمر بن عبد العزيز بعث اليه يقول : « ... فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك !! فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه . »

ومن جهة أخرى نرى عمر بن عبد العزيز يعوض النقص فى الجزية بقرار آخر اذ كتب الى حيان بن سريج يأمره بأن يجعـل جزية موتى القبط على أحيائهم . وربما كان هذا الأمر هو الذى بعث ساويرس على أن يقول ان عمر بن عبدالعزيز أمر بأن تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يسلمون حتى فى الحالات التى لم تجر عادتهم بالقيام بها .

لكن سياسة اعفاء الذين يعتنقون الاسـلام من الجزية لم تستمر بصفة دائمة بعد عهد عمر بن عبد العزيز ، بدليل أنه بعد ذلك نرى أن قرار اى خليفة برفع الجزية عمن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الاسلامى .

أما فى مسـألة الخراج فقد عاد عمر بن عبد العزيز الى القاعدة التى كان قد وضعها عمر بن الخطاب ، وهى أن الأرض المفتوحة عنوة لا تقسم بين المسـلمين بل تصبح ملكا للجماعة

(١) اهل الديوان : تعنى الجند ، أى الجند المثبتون في ديوان الجند .

الاسلامية أو شبه وقف عليها ، ولايجوز للمسلم أن يمتلك شيئا منها ، وانما تبقى فى يد أصحابها يؤدون عنها الخراج . وهكذا قرر عمر بن عبد العزيز أن الخراج حق عينى على الأرض فيجب أن يؤخذ الخراج عن الأرض سواء أكانت فى يد مسلم أم غير مسلم .

كذلك سمح عمر بن عبد العزيز للموالى أن يقيموا فى المدن والحواضر واعفاهم من الخراج والجزية . ولكن خطة عمر لم تنجح اذ انها أدت الى نقصان الدخل ، كما أنها زادت فى عدد الموالى فى المدن . وأخذ كثير من أهل الذمة يدخلون فى الاسلام طمعا فى الحصول على امتيازات اقتصادية . وعلى أية حال فان عمر بن عبد العزيز لم يعط الفرصة الكافية لتنفيذ اصلاحه المالى اذ توفى سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) وآثر خلفاؤه من بعده الأخذ بنظام الحجاج مع بعض التعديلات الجزئية .

وهكذا أصبح الذمى اذا اعتنق الاسلام لا تعفى أرضه من الخراج . بل ان هذه القاعدة لم تلبث أن طبقت على العرب أنفسهم . وفى مصر لما أصبح للعرب حق امتلاك الأرض وزراعتها وجب عليهم دفع الخراج . وقد بدأ العرب فى مصر يشتغلون بالزراعة فى أواخر العهد الأموى وقامت ثوراتهم من أجل الخراج فى العهد العباسى . وكان آخر ثورات العرب بمصر من أجل الخراج ، تلك التى قامت فى سنة ٢١٦ هـ فى ولاية عيسى بن منصور والتى اشترك فيها العرب مع الاقباط وانتهت بقدوم الخليفة المأمون الى مصر لاخضاعها فى أوائل سنة ٢١٧ هـ

٣ ـ ضرائب الصناعة والتجارة :

كانت حكومة العرب منذ الفتح تفرض ضرائب على الصناع والأجراء . وتقدر هـذه الضرائب بقدر احتمـالهم . وكان العرب فى مصر ـ كالبيزنطيين ـ يفرضون ضرائب على التجارة وتعرف هذه الضرائب بالمكوس (١) .

ويقال ان ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه ، وكان ممن شهد فتح مصر من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان واليا لعمرو بن العاص على المكس فى مصر . واثر عن زريق ابن حيـان الذى كان على مكس مصر زمن الخليفـة عمـر بن عبد العزيز أنه قال « ان الخليفة كتب اليه أن يراقب من مر عليه من المسلمين فيأخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر له من التجارات من كل أربعين دينارا ، دينارا ، وما نقص بحسابه حتى تبلغ عشرين دينارا ، فان نقصت عن ذلك تركها ولا يأخذ منها شيئا . واذا مر عليه أهل الذمة أخذ منهم من كل عشرين دينارا ، دينارا ، وما نقص فبحسابه ذلك حتى تبلغ تجاراتهم عشرة دنانير ، فان

---

(١) يذكر الاستاذ جرومان Grohmann : Arabic Papyri, Vol. III, p. 9 ان كلمة مكس مشتقة من اللفظ السريانى ماكسو makso ، ويذكر المقريزى أن أصل المكس في اللغة . الجباية ، يقال مكسه مكسا ، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الاسواق فى الجاهلية ، والماكس هـو العشار أو العاشر ، ويقال للعاشر : صاحب مكس . والمكس أيضا انتقاص الثمن فى البياعة ومكس درهم معناه نقص درهم فى بيع ونحوه . وعشر القوم معناه أخذ عشر أموالهم ، والعشار هو قابض العشر (الخطط ج ٢ ص ١٢١)

نقصت عن ذلك لا يأخذ منها شيئا ، والا يأخذ من التجار مرة أخرى قبل انقضاء العام ، وأن يكتب لهم كتابا بما أخذ منهم » (١) .

وهذا النص يبين لنا قيمة الضرائب على التجارة ، وانها كانت ضرائب سنوية يعطى دافعوها ايصالا بذلك . كذلك يبين النص ما يؤخذ من المسلمين وما يؤخذ من أهل الذمة . ويظهر أن هذه الضرائب التى يحدثنا عنها المؤرخون كانت تؤخذ من التجار الذين يتاجرون فى مصر نفسها ، اعنى انها كانت تؤخذ على التجارة الداخلية . وكان مقر ادارة هذه الضرائب فى الجهة التى عرفت باسم المقس ، وهى قرية أم دنين ، التى كانت تقع شمالى الفسطاط ، وانما سميت المقس لأن العاشر أو صاحب المكس كان مقره هناك فقيل المكس وقلب فقيل المقس .

وتثبت أوراق البردى وجود هذه الضرائب التى تفرض على التجارة الداخلية .

وكما اهتمت حكومة العرب فى مصر بفرض ضرائب على التجارة الداخلية فى البلاد فانها لم تنس أيضا أن تفرض ضرائب على التجارة الخارجية التى تمر بثغورها أو التى ترد اليها أو تصدر منها . فيذكر المقريزى (٢) انه كان يجبى من التجار فى الثغور المصرية ، وهى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والاسكندرية ضرائب مقررة .

فالمكس قبل الاسلام كان عبارة عن حق فرض الضرائب على الأسواق ، أو حق فرض الضرائب التى تجبى فى الموانى والبلاد التى على الحدود المصرية ، وقد حافظ المسلمون على هذا الحق وقربوه من نظام الزكاة أو العشور .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٢٢
(٢) الخطط ج ١ ص ١٠٩

٤ ـ الضرائب الأخرى :

كانت حكومة العرب تفرض ضرائب أخرى غير عادية تبعا لازدياد مصروفات الدولة على ايرادتها . وقد ورد فى نصوص أوراق البردى ذكر لضرائب غير عادية . فنرى قرة بن شريك يطالب فى رسائله الى صاحب أشقوه ، بجمع تلك الضرائب غير العادية ، أو بجبايتها من الناس بالعدل .

كذلك لجأ العباسيون الى فرض مثل تلك الضرائب التى زادت زيادة كبيرة فى عهدهم ، ففرضت ضرائب على أهل الأسواق والدواب وغير ذلك . وزادت الضرائب غير العادية زيادة فاحشة منذ أن ولى أحمد بن محمد بن المدبر خراج مصر فى سنة ٢٤٧هـ ففرض ضريبة على الكلأ الذى ترعاه البهائم سماها المراعى ، وفرض ضريبة على ما يستخرج من البحر سماها المصايد ، كذلك حجر ابن المدبر على النطرون بعدما كان مباحا لجميع الناس . وانقسمت ضرائب مصر منذ مجىء ابن المدبر الى ضرائب خراجية وهى التى تجبى سنويا ، وضرائب هلالية وهى التى تجبى شهريا . وعرفت الضرائب الهلالية باسم المرافق والمعاون .

٥ ـ الالتزامات أو الليتورجيا Leiturgia

وجدت أنواع من الضرائب فى العهد العربى يمكننا أن نسميها الالتزامات ، وهذا النوع وجد قبل الفتح العربى . وعرف نظام الالتزامات فى العالم القديم باسم الليتورجيا Leiturgia ومعناه التزام الشخص أو الجماعة ببعض الخدمات للدولة . ففى أثينا فى بلاد اليونان كان كل مواطن يمتلك نصيبا معينا من الاملاك يقدم الى الدولة بعض الخدمات الشخصية . (١) ولكن هذا النظام لم يكن فى العصر الاسلامى عاما كما كان عند الاغريق القدماء ، بمعنى أنه كان ظاهرا فى الضرائب وما يتصل بها ، فكانت الكورة تلزم بأداء نوع من الخدمة للدولة أو بدفع مبلغ فى مقابل اعفائها من ذلك . وفى بعض الأحيان كان الوالى يوصى عماله على الكورات بجمع الأشخاص أو المواد اللازمة لهذه الخدمات، وبعدم قبول المال مقابل الاعفاء من أدائها .

ومن أهم أنواع الالتزام أو الليتورجيا فى عصر الولاة :

١ ـ تقديم العمال والأدوات اللازمة لتشييد الطرق وحفر الترع أو كريها .

٢ ـ تقديم مواد غذائية مختلفة مما تشتهر بانتاجه الكورات

(١) كانت هذه الخدمات كثيرة النفقات ، وكانت فى البداية نتيجة طبيعية للامتيازات السياسية التى ينعم بها الأثرياء ، فكانوا يؤدونها للجمهورية ليكون نصيبهم من الضرائب أثقل من نصيب الفقراء . ولكن لما أزدهرت الديمقراطية فى أثينا وأصبح المواطنون متساوين فى الحقوق السياسية تغيرت طبيعة تلك الامتيازات ، وصارت نوعا من ضرائب الدخل .

٣ ـ ايواء الجند وضسيافتهم ، فقد اشترط على القبط بعد فتح العرب لمصر أن من نزل عليه ضيف واحد او اكثر من المسلمين وجبت عليه الضيافة لهم ثلاثة ايام . ولعل السبب الذى حدا بالعرب الى ذلك هو أنهم فى أول عهدهم بمصر كانوا جنودا ، وكانت اقامتهم مقصورة على العاصمة التى بنوها لانفسهم ، أو فى الثغور لحمايتها ضد الأعداء . وقد أخذ العرب واجب الضيافة هذا من الرومان والبيزنطيين فى مصر .

٤ ـ من الالتزامات أيضا تقديم الموظفين ذوى الخبرة لبعض الأعمال الحكومية .

٥ ـ تقديم المواد والأيدى العاملة اللازمة لتشييد المبانى العامة فى مصر ، بل ولعمارة المساجد فى الشام وبلاد الحجاز .

٦ ـ تقديم البحارة ومواد بناء السفن .

٦ ـ نظام جباية الضرائب :

اتبع العرب فى جباية الضرائب النظام الذى اتبعه البيزنطيون من قبل ، فكانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها . ولم نكتف فى معلوماتنا عن هذا العصر بما ذكره المؤرخون العرب القدماء ، واقدمهم عاش بعد هذا العصر أكثر من قرنين من الزمان ، وانما استقينا معلوماتنا من الأوراق البردية التى ترجع الى عهد قرة بن شريك الذى ولى مصر بعد وفاة عبد العزيز بن مروان بأربع بسنوات . ففى كتاب من قرة ابن شريك فى سنة ٩١ هـ الى صاحب شبرا بسيرو من كورة أشقوه يذكر فيه أن على قريته من جزية سنة ٨٨ هـ مقدار ١٠٤ ٢/٣ دينار ، ومن ضريبة الطعام ١١ ١/٣ أردب من القمح . وفى كتاب آخر أرسله سنة ٩١ هـ الى أهل شبرا أجيه بنوتيه من كورة اشقوه يذكر انه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ مقدار ٣٧ دينارا . وفى كتاب ثالث أرسله سنة ٩١ هـ لأهل هروس ابيرميوطس من كورة اشقوه ذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨هـ مقدار ٢٨ ١/٦ دينار (١) .

وكما كان الحاكم العام فى مصر فى عهد الرومان يقدر الضرائب التى تفرض على مختلف نواحى البلاد على أساس المعلومات التى يقدمها اليه الحكام المحليون ، كذلك نجد العرب يتبعون نظاما يشبه النظام السالف . فنرى قرة بن شريك يرسل الى صاحب

(١) انظر Becker : Neue Arabische Papyri, pp. 267-268, Grohmann : Arabic Papyri, Vol. III, pp. 48, 51, 54.

كورة أشقوه تعليمات خاصة بجباية الضرائب ، فيأمره بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كى يختاروا رجالا أمناء أذكياء ليكلفهم تقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر استطاعتهم ، وبعد أن يقوموا بمهتمهم هذه تحت اشراف صاحب الكورة ، يطلب منه أن يرسل اليه نتيجة عملهم بعد أن يحتفظ بنسخة لنفسه ، ويطلب منه أيضا أن يكتب أسماء وألقاب ومحل اقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب ، وينذره بأنه اذا وجد أن قرية حملت أكثر مما تحتمل من الضرائب أو أقل ، فانه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة أيضا اشد عقاب . (١)

وهذا يؤيد ما ذكره ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ، والمقريزى فى الخطط ، والسيوطى فى حسن المحاضرة ، من أنه لما استوثق الأمر لعمرو بن العاص « اقر قبطها على جباية الروم، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وان قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ومازوتها ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكورة ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع » .

ومن هذا نرى أن صاحب الكورة هو الذى كان يتصل بالوالى أو عامل الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التى تدخل فى دائرة هذه الكورة ، ويشرف على تقدير هذه الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت اشراف صاحب الكورة .

---

(1) Bell, HI. : Translations of the Greek Aphrodito. Papyri in the British Museum (Der Islam : Band III, 1912) p. 282.

وكانت الضرائب بعد الفتح ـ اذا استثنينا الضرائب غير العادية ـ تجبى كل سنة قمرية . وكان المصريون قبل الفتح يعتمدون فى الزراعة والحصاد وجباية الخراج على السنين الشمسية والشهور القبطية . ولهذا نرى العرب يحولون السنة الخراجية القبطية الى السنة الهلالية العربية ، فكانوا يسقطون سنة عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنة قمرية ، وسموا ذلك الازدلاق لأن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتين وثلاثين سنه شمسية بالتقريب .

وكان الأهالى الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون ايصالات عرفت فى أوراق البردى العربية باسم «براءة» . وكان جابى الضريبة العينية ينتخبه السكان ويسمى « القبال » . وكانت الضرائب العينية المكونة من الحبوب ترسل الى أمراء العاصمة . أما الضرائب النقدية فكانت ترسل الى ديوان الخراج والأموال عن طريق فروعه فى الأقاليم ، وكان يشرف على كل فرع من فروع المالية فى الأقاليم موظف يسمى الجسطال .

٧ ـ النقود الاسلامية :

كان العرب فى الجاهلية يتعاملون بالدراهم الفضية الفارسية والدنانير البيزنطية الذهبية • فلما جاء الرسول عليه الصلاة والسلام أقرهم على ذلك ، وكذلك فعل من بعده خليفته أبو بكر الصديق •

وتذكر بعض المراجع أن أول من ضرب النقود من الخلفاء هو عبد الملك ابن مروان أخو عبد العزيز بن مروان • على أن المقريزى يذكر أن عمر بن الخطاب أقر النقود على حالها الا أنه فى سنة ١٨ هـ ضرب الدراهم على نقش الفارسية وشكلها غير أنه زاد فى بعضها « الحمد لله » وفى بعضها « محمد رسول الله » وفى بعضها « لا اله الا الله وحده » • ولما بويع عثمان بن عفان بالخلافة ضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر » •

ولما اجتمع الامر لمعاوية بن أبى سفيان ضرب الدراهم أيضا • ولما جمع لزياد بن أبيه ولاية الكوفة والبصرة فى خلافة معاوية ضرب دراهم على غرار دراهم معاوية • ويذكر المقريزى أن معاوية لم يضرب الدراهم فحسب وانما ضرب دنانير « عليها تمثال متقلد سيفا » والمقصود بالتمثال طبعا صورة الرجل •

ولما قام عبد الله بن الزبير بمكة ودعا لنفسه بالخلافة ، ضرب دراهم مدورة ، وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة • ويذكر المقريزى أن ما ضرب من الدراهم قبل ذلك كان «ممسوحا» غليظا قصيرا ، فدورها عبد الله ، ونقش على أحد وجهى الدراهم:

« محمد رسول الله » ، وعلى الوجـه الآخر « أمر الله بالوفـاء والعدل » • وضرب أخـوه مصعب بن الزبير دراهـم بالعراق ، وأعطاها الناس فى العطاء ، حتى قدم الحجاج بن يوسف العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فقال : « ما نبقى من سنة الفاسق أو المنافق شـيئا » وغيرها ، وطبيعى أن الحجـاج يشير بذلك القول الى عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب •

وتكاد المصادر الاسلامية القديمة تتفق على أن المسـلمين بدءوا يضربون الدراهم منذ خـلافة عمر بن الخطـاب ، ولكنها لا تتفق على من بدأ من الخلفاء أو الأمراء بضرب الدنانير الذهبية •

والراجح أن المسلمين بدءوا بضرب الدنانير منذ خلافة عمر ابن الخطاب ولكن على نطاق ضيق جدا • وظلت النقود المتداولة هى الدنانير البيزنطية والدراهم الفضية الفارسية جنبا الى جنب مع الدراهم والدنانير التى ضربها الخلفاء والأمراء المسلمون • ويذكر المستشرقان الفرنسيان كاترمير Quatremère (١) وسـوفير Sauvaire (٢) أن الـكاتب القبطى بشـندى Picendi أسقف قفط الذى عاصر فتح العرب لمصر ، كتب كتابا الى أساقفة أمته (وهذا الكتاب محفوظ فى المكتبة الأهلية فى باريس) يقول فيه : « ان العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس ، وصورة السيد المسيح ، ومحوا الصليب وصورة السيد المسيح وكتبوا فى مكانها اسم نبيهم محمد الذى يتبعون تعاليمه ، واسم خليفة نبيهم ، ونقشوا الاسمين معا على النقود الذهبية • »

وهذا النص يبين أنه منذ فتح العرب مصر فى خلافة عمر بن

---

(١) Quatremère, Et. : Mémoires Géographiques et Historiques sur l'Egypte, T. I, p. 343 (Paris 1811).

(٢) Sauvaire, M.H. : Matériaux pour servir à l'histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmanes (Extrait du Journal Asiatique, 7ème Série, T. XIV, pp. 456-457), Paris 1879.

الخطاب ، ضرب المسلمون الدنانير الذهبية وان كان لا يذكر على وجه التحديد اسم الخليفة . كذلك يتضح من النص السابق ومن النصوص القديمة الاسلامية أن العرب لما ضربوا نقودهم أبقوها على شكلها الرومى والفارسى بنقوشها وشكلها مع اضافة العبارات الاسلامية . وقد عثر على دينار اسلامى يعتبر من الدنانير النادرة ، وهذا الدينـــار ضرب على طراز النقود النحاسية التى ضربت فى الاســـكندرية للامبراطور البيزنطى هرقل وابنيه قســـطنطين وهيراقلوناس . ووجدت نسخ قليلة جدا من هذا الدينار لا يتجاوز عددها أصابع اليد حفظت فى متاحف ألمانيا وبريطانيا وأمريكا وتركيا ، ووصفها لافـوا Lavoix ، ولين بول Lane-Poole واسـماعيل غالب (فى موزه همـايون قاتالوغى) وجورج مايلز G.C. Miles

ومن الأوصاف المختلفة يتضح أن هذا الدينار الذهب يشبه تماما النقود النحاسية التى ضربها هرقل فى الاسكندرية ، ووزن الدينار حوالى ٤ر٣٥ من الجرام وقطره ٢٠ مليمترا ، ولا يختلف الدينار عن نقود هرقل الا فى تحويل الصلبان الى دوائر ووجود كتابة كوفية هى (بسم الله ــ لا اله الا الله وحده ــ محمد رسول الله) وهذه الكتابة تكون « طوق النقد » أى الهامش المحيط بمركز الدينار . وكذلك كتب على الدينار الاسلامى الحرفان B.I واعتبر ستانلى لين بول ، واسماعيل غالب ، الحرفين B·I تأريخ الدينار بالسنين وفسراهما باحدى وعشرين. واذا أخذنا بهذا التفسير يكون هذا الدينار الذهبى النادر قد ضرب فى سنة ٢١ هـ فى أواخر خلافة عمـر بن الخطـاب (١) ولعـله يكون قد ضرب فى مصر فى دور الضرب البيزنطية التى كانت موجودة قبل الفتح العربى ،

---

(١) انظر : ناصر السيد محمود النقشبندى : الدينار الاسلامى ــ ج١ ص ١٨ ــ ٢٢ وما ذكره من مراجع (بغداد ١٩٥٣ م)

ويرجح قولنا هذا ماكتبه بشندى أسقف قفط عن العرب والنقود بعد فتح مصر ٠

ولما ولى عبد الملك بن مروان خلافة المسلمين كان العالم الاسلامى يجتاز مرحلة خطيرة فى حياته ، فكانت هناك الفتن الداخلية ، والحركات الخارجة على الخلافة ، فضلا على الاعتداءات البيزنطية على الحدود الاسلامية ٠ وفى سنة ٧٣ هـ استطاع عبد الملك أن يلم شمل العالم الاسلامى بعد أن تخلص من المناوئين والمعارضين للخلافة الأموية ٠ وكان من أهم أهداف سياسة عبد الملك اتمام صبغ الدولة الاسلامية بصبغة عربية فشرع فى تعريب دواوين كافة البلاد الخاضعة للخلافة ، كذلك اهتم عبد الملك باصلاح السكة وتوحيدها فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية ٠ والاستغناء عن النقود الأجنبية فارسية كانت أو رومية ٠

ويعطينا المؤرخون العرب أسبابا غير مقنعة لتعريب النقد وتوحيده زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، فيقولون ان السبب الذى حدا بعبد الملك الى هذا هو أن القراطيس ، أى أوراق البردى ، كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، ويأتى العرب من قبل الروم الدنانير ، « فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذى يكتب فى رءوس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله ٠ فكتب اليه ملك الروم : انكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه ، فان تركتموه والا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهونه » ٠ فكبر ذلك فى صدر عبد الملك وكره أن يدع سنة حسنة سنها ، فأرسل الى خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره فى ذلك ، فأشار عليه خالد بتحريم دنانيرهم ، وكان أن ضرب عبد الملك الدنانير ومنع التعامل بدنانير بيزنطة (١) ٠ وقد تكون الرواية

(١) البلاذرى : فتوح البلدان : ص ٢٤٠ (ليدن ١٨٦٦ م) ، المقريزى: النقود الاسلامية ص ٦ (القسطنطينية ١٢٩٨ هـ) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٦ ـ ١٧٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م)

السابقة صحيحة ، لكننا نرجح أن تعريب النقد ، وتوحيده ، والاستغناء عن النقود الأجنبية رومية كانت أو فارسية ، كان جزءا من سياسة عبد الملك بن مروان التى استهدفت تعريب مؤسسات الدولة ، كما أنه كان رمزا للسيادة الكاملة للدولة العربية (١) ٠ وعلى كل حال فقد توصل لافوا Lavoix بمقارنة المصادر العربية والبيزنطية ، وفهارس مجموعات النقود ، الى أن اصلاح عبد الملك بدأ حوالى ٧٣ ـ ٧٤ هـ (٦٩٢ ـ ٦٩٣ م) ، ولكن ضرب النقود استمر بأشكالها القديمة عدة سنوات بعد هذا التاريخ ٠

والواقع أن التعامل بالدنانير البيزنطية فى الدولة الاسلامية كان مظهرا من مظاهر استمرار الأساليب البيزنطية فى الدولة العربية ، لكن عبد الملك بن مروان بدأ باستكمال تعريب الدولة وباصلاحاته الداخلية بعد تخلصه من الفتن والمشاكل الداخلية ٠ ويروى البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان أن عبد الملك ضرب شيئا من الدنانير فى سنة ٧٤ هـ ، ثم ضربها سنة ٧٥ هـ ٠ ويذكر أيضا فى رواية أخرى أن عبد الملك أول من ضرب الذهب سنة ٧٤ هـ ، ثم ضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ هـ ، ثم أمر بضربها فى جميع النواحى سنة ٧٦ هـ ٠ ويذكر المقريزى فى كتابه النقود ، أنه لما « استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابنى الزبير ، فحص عن النقود ، والأوزان ، والمكاييل ، وضرب الدنانير والدراهم فى سنة ست وسبعين من الهجرة » ويحدثنا المقريزى فى رواية من رواياته أن دنانير عبد الملك الأولى كان فيها صورة ، فيقول عن عبد الملك : « وكتب الى الحجاج وهو بالعراق ، أن اضربها قبلى فضربها ، وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها بقايا الصحابة رضى الله عنهم أجمعين،

---

(١) أنظر : الدكتور عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى، ص ٢١٣ (طبعة بغداد)

فلم ينكروا منها سوى نقشها ، فان فيها صورة ، وكان سعيد ابن المسيب ، رحمه الله ، يبيع بها ويشترى ، ولا يعيب من أمرها شيئا » ٠

والواقع أن مجموعات الدنانير والنقود الباقية لدينا فى المتاحف تؤيد كلام المقريزى الى حد بعيد ، فان أقدم دينار اسلامى عثر عليه لعبد الملك مؤرخ سنة ٧٦ هـ ٠ وهذا الدينار ضربه عبد الملك على الطراز البيزنطى وفيه تصوير يمثل الخليفة متقلدا سيفا ، وفيه تأريخ الضرب بحروف كوفية ٠ ثم ضرب عبد الملك الدنانير على النمط نفسه عام ٧٧ هـ ٠ وفى سنة ٧٧ هـ أحدث عبد الملك ضرب الدينار على طراز اسلامى عربى مغاير للطراز البيزنطى فظهر الدينار لا يحمل الا كتابات كوفية ٠ واستمر ضرب النقود بهذا الشكل الأخير الى نهاية العصر الأموى (١) ٠

وكان أول من نقش كلمة « دينار » بحروف كوفية على النقود الذهبية فى الاسلام هو عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ ٠ ولما كانت النقود ترتبط بالمسائل الشرعية مثل الزكاة والصداق والدية ، فان عبد الملك أخذ تلك المسألة فى الاعتبار حين ضرب النقود فاتخذ النسبة القديمة المعروفة ، والتى أقرها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى أن كل سبعة دنانير تزن عشرة دراهم ٠ وكذلك عدل عبد الملك بين الدراهم الكبار والصغار اذ وجد الدراهم الكبار ثمانية دوانيق والصغار أربعة دوانيق فاتخذ أمرا وسطا ومنزلة بين منزلتين فجعل وزن كل درهم ستة دوانيق حتى لا يظلم الناس فى دفع مايجب عليهم دفعه من خراج أو زكاة ٠ ولذلك قيل : كان « فيما صنع عبد الملك فى الدراهم ثلاث فضائل ، الأولى أن كل سبعة مثاقيل زنة عشرة دراهم ، والثانية : أنه عدل بين صغارها وكبارها حتى اعتدلت وصار الدرهم ستة دوانيق ،

---

(١) النقشبندى : الدينار الاسلامى ص ١٧ — ٢٤ وما ذكره من مراجع

والثالثة : أنه موافق لما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فريضة الزكاة بغـــير وكس ولا اشتطاط • قضت بذلك السنة ، واجتمعت عليهما الأمة » •

وقــد أمر عبــد الملك بن مروان ، الحجـــاج بن يوسف بنشر الدراهم الجديدة فى القسم الشرقى من الدولة الاســـلامية وبمنع تداول الدراهم السابقة ، وباقناع الناس بجلب الدراهم القديمة الى دار الضرب لطبعها من جديد • أما عبد الملك نفسه فقد ضرب الدنانير الدمشقية كما يذكر البلاذرى • ولاشك أن عبد العزيز بن مروان أخذ باصلاح أخيه عبد الملك للسكة على غرار مافعله سائر الأمراء في مختلف الولايات •

وكانت مصر مثل الشام تتبع قاعـــدة الذهب بعكس العراق وشرقى العالم الاسلامى الذى كان يتبع قاعدة الفضة • وتدل الآثار على أن المعاملات بين الأهالى فى مصر قبل الفتح العربى كان أساسها العملة الذهبية المعروفة بالدينـــار denarius أو السوليدوس solidus أو التريميـــزيون tremision وكان فى مصر عمـــلة مســاعدة الى جانب الذهب وهى الدراهم الفضـية كما كان هناك نقود صغيرة ـ كالقروش وكسورها الآن ـ من العملة البرنزية •

ويقول المقريزى فى كتابه النقود : « أما مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المنسوب اليه رقيم الأعمال وأثمان المبيعات ، ذهبا فى سائر دولها ، جاهلية واسلاما ، يشهد لذلك بالصحة أن خراج مصر فى قديم الدهر وحديثه انما هو الذهب » •

وتؤيد أوراق البردى والآثار القديمة ماذكره المقريزى ، اذ تشهد كلها بأن الجزية والضرائب ، وايجار الارض ، وأجور العمال ، وسائر المعاملات كانت تدفع بالدنانير وأقسامها •

وظلت الدنانير الذهبية هى النقـــود المتداولة فى مصر بعد

الفتح العربى كما كان الحال قبل الفتح • وقد تكون النقود الاسلامية دخلت فيها بعد الفتح كما يتضمن من كتاب الكاتب القبطى بشندى أسقف قفط الذى عاصر فتح العرب •

ولا شك أن النقود الأجنبية ظل يتعامل بها فى مصر جنبا الى جنب مع النقود الاسلامية حتى اصلاح عبد الملك بن مروان للسكة وتحريمه الدنانير الاجنبية • أى أن السكة فى مصر خضعت للسكة الاسلامية ولم تستقل السكة فى مصر الا بعد استقلالها عن الخلافة كما حدث فى عهد أحمد بن طولون •

ولا نعـــرف •• اذا كان عبد العـــزيز بن مروان أسس فى الفسطاط دارا لضرب النقود ، أو استعمل دار الضرب القديمة فى الاسكندرية ، أو اعتمد على دمشق عاصمة الخلافة فى سك الدنانير الجديدة •

الفصل الخامس

جيش مصر فى عهد عبد العزيز بن مروان

١ ــ العرب عماد الجيش

٢ ــ ديوان الجند

٣ ــ موقع مصر الاستراتيجى وعبء الحامية المصرية

٤ ــ المطوعة

١ ـ العرب عماد الجيش

بعد أن تم للعرب فتح مصر بقى بها جيش عربى ٠ وكانت سيادة العرب حينئذ تتمثــل فى الحرب والجيش ولذلك انصرف المصريون الى الاعمال المدنية ٠

وكان العرب يتميزون بالروح المعنوية القوية ، والجهاد فى سبيل الله ولا أدل على ذلك من تلك الكلمات التى قالها عبادة بن الصامت حين أرسله عمرو بن العاص ليفاوض المقوقس قبل صلح بابليون الأول ، اذ قال للمقوقس : « أنا قد وليت وأدبر شبابى ، وانى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا ، وكذلك أصحابى ، وذلك انما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه ٠ وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، الا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا ،وما يبالى أحدنا ان كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك الا درهما لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها « يسد » بها جوعه لليله ونهاره وشملة « يلتحفها » ، فان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده ويبلغه ما كان فى الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء ، انما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينــا وعهد الينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا الا ما يمسك جوعته ويســتر عورته ، وتكون همته وشــغله فى رضــوانه وجهــاد عدوه ٠ » (١)

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٩١

والمعروف ان الخليفة عمر بن الخطاب حرم على الجند فى مصر وفى سائر الأقاليم المفتوحة الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الارض لئلا يركنوا الى الكسل ويسيطر عليهم حب المال والنعيم ٠

ولم يرض عمر بن الخطاب بتقسيم الأراضى بين الجند كما رأينا ، بل حرم عليهم الاشتغال بالزراعة ٠ويذكر ابن عبد الحكم(١) فى رواية له عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب كتب الى أمراء الأجناد بأن يمنعوا الجنود من الزرع والمزارعة (٢) لأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل ٠

ولا بد أن الجيش العربى فى مصر قد زاد عدده بعد الفتح زيادة كبيرة ، ونعلم أن جيش الاسكندرية أو رباطها كان اثنى عشر ألفا فى سنتى ٤٣ ـ ٤٤ هـ ، ولكن قائد هذا الرباط كتب الى عتبة بن أبى سفيان والى مصر يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم ٠ ونستطيع أن نلمس هذه الزيادة الكبيرة اذا تذكرنا ان الجيش الذى قدم الى مصر لفتحها قبل ذلك بنحو عشرين عاما كان كله يتردد بين ١٢ ألفا و ١٥ ألفا من الجنود ٠

ولا شك أن هذه الزيادة المطردة للجند العربى كان لابد منها لحماية مصر ضد الروم الذين كانوا يتحينون الفرص للاغارة على مصر بقصد استردادها من العرب ، وكذلك لحماية حدود مصر الجنوبية والغربية بل للتوسع غربا كما سنرى ٠

---

(١) فتوح مصر ، ص ١٦٢ (طبعة تورى)

(٢) اذا أجر المالك جزءا من أرضه واتفق مع المستأجر على ان يؤدى الايجار من المحصول عرف ذلك باسم المزارعة ٠ وفى القاموس زارع فلانا اى عامله على الارض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها ٠

٢ ـ ديوان الجند

قام النظام الديوانى مع قيام الدولة العربية نفسها ، وكان عمر بن الخطاب هو أول من دون الدواوين أو أنشأها ، حين اتسعت رقعة الدولة الاسلامية فى عهده ، فكان لابد من ضبط الاموال وتقرير العطاء المفروض للجند وأسراتهم وما الى ذلك مما تتطلبه أمور الدولة بعد اتساعها • وتذكر المصادر أن « ديوان » كلمة فارسية معناها الدفتر أو السجل ثم استعملت الكلمة للمكان الذى تحفظ فيه سجلات الدولة •

أما الديوان الذى أنشأه عمر بن الخطاب فكان ديوان الجند وأطلق عليه آنئذ « الديوان » لأنه كان الديوان الوحيد فى المدينة عاصمة الدولة العربية • وكان هذا الديوان يقوم بتنظيم الجند وتنظيم أعطياتهم، وكان يحفظ فيه سجلات بأسماء الجند وأوصافهم وأنسابهم وأعطياتهم •

ولم يقتصر وجود الدواوين على مقر الخلافة بل كان هناك دواوين محلية فى البلاد المفتوحة كانت استمرارا للدواوين التى كانت موجودة قبل الفتح العربى ، أو كانت فروعا للدواوين المركزية فى مقر الخلافة •

وكان فى مصر ديوان للجند تدون فيه أسماؤهم وأسراتهم لتقرير العطاء والأرزاق اللازمة لهم • وأول من دون ديوانا للجند فى مصر هو بطل فتحها عمرو بن العاص • ولما ولى مصر عبدالعزيز

ابن مروان دون تدوينا ثانيا • ثم دون قرة بن شريك التدوين الثالث ودونه بشر بن صفوان (١٠١ ـ ١٢٠ هـ) التدوين الرابع • وكان الجند يثبتون فى الديوان على حسب قبائلهم التى ينتمون اليها ، ونلاحظ هذا فى نظام الجيش الذى فتح مصر ، اذ كان مقسما على حسب القبائل ، وفى مدينة الفسطاط أيضا التى اختطها العرب اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة مستقلة عن القبائل الأخرى • وكان أهل الديوان فى مصر زمن خلافة معاوية ابن أبى سفيان أربعين ألفا • ويذكر ابن عبد الحكم والمقريزى أن معاوية بن أبى سفيان جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا يدور على المجالس كل صباح ليسأل عما اذا كان مولود قد ولد فيهم أو ضيف حل بهم فيكتب أسماءهم وأسراتهم ويذهب الى الديوان ليثبتهم فيه •

ولا شك أن اعادة تدوين الديوان كان له مبررات فمثلا الذى حمل بشر بن صفوان على تدوينه الديوان ما رآه من تفرق قبيلة قضاعة فى القبائل الاخرى ، فاستأذن الخليفة يزيد بن عبد الملك ليستخرجهم من كافة القبائل ويجعلهم فى قبيلة على حدة فأذن له بذلك • ونجد بعد هذا أن قبيلة قيس مثلا تلحق بالديوان زمن الخليفة هشام بن عبد الملك • ومن يقرأ أخبار الولاة يجد عادة أن كل وال جديد يصحب معه نفرا من قبيلته وعشيرته• وكان هؤلاء الولاة عربا حتى نهاية الدولة الاموية • أما فى الدولة العباسية فقد جدت عناصر أخرى فارسية دونت فى الديوان • ثم ما لبث أن ظهر عنصر آخر طغى على العنصر العربى والفارسى ، وقوام هذا العنصر الجديد الجند الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم وأثبتهم فى الديوان • بل ان المعتصم لم يقف عند هذا ، فقد أمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم فى سنة ٢١٨ هـ ففعل ذلك كيدر ، وكان من أثر

هذا أن انتشر العرب في انحاء مصر يسعون وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن والحرف التى كانت الى ذلك الوقت وقفا على أهل البلاد .

ونستنبط من أوراق البردى أن الوالى كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجند وأسراتهم ، أو يطلب من أصحاب الكور ارسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على أهل الديوان .

ولسنا نعرف تماما المبادىء التى كانت تقدر على أساسها أعطيات الجند ، وهل كان ينظر الى القبيلة وسابقتها فى الاسلام وفضلها فى الجهاد ، أو كان الأساس قدر ما على الشخص من التزامات عائلية . ولكن من المحتمل أن بعض الخلفاء كان يزيد أعطيات بعض القبائل استرضاء لها واصطناعا لأبنائها ، ولعل عطاء الفارس كان ضعف عطاء الراجل ليستطيع أن ينفق منه على فرسه .

ويذكر الماوردى أن تقدير العطاء كان بحيث يغنى المرء عن الاشتغال بحرفة أخرى تشغله عن القتال والحرب . ومهما يكن فقد كان من الواجب أن يراعى فى تقدير العطاء ثلاثة وجوه : أحدهما عدد من يعوله الفرد من الذرارى والمماليك ، والثانى عدد ما عنده من الخيل والظهر (١) ، والثالث ظروف الموضع الذى يحل فيه من الغلاء والرخص واذا مات أحدهم أو قتل يصبح عطاؤه ارثا من بعده يأخذه ورثته .

ويختلف الفقهاء فى ذلك ، فبعضهم يقول ان ورثته يحالون على مال العشر والصدقة لأن عطاءه قد سقط بموته ، والبعض يقول بأن يورث ورثته من عطائه ، وهذا فيه تشجيع للجنود على التجند

(١) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال .

ونحن نعرف من المصادر التاريخية أن العطاء لم يستمر على حال واحدة فالخليفة عثمان بن عفان أول من زاد فى عطاء الجند ، ولكن هذه الزيادة لم تستمر بعده ، فبعض الخلفاء أبقاها والبعض منعها. فنجد مثلا عمر بن عبد العزيز (٦٩ ـ ١٠١ هـ) يكتب بزيادة اعطيات الناس فى ولاية ايوب بن شرحبيل على مصر (٦٩ ـ ١٠١ هـ) ويامر الخليفة يزيد بن عبد الملك بمنعها (١٠١ ـ ١٠٥ هـ) . كذلك كانت الحال فيما يختص بالارزاق ففي رواية عن ابن لهيعه أن أرزاق المسلمين كانت اثنى عشر آردبا فى كل سنه فنقص اردبين أردبين فصار كل رجل الى عشرة ، فلما ولى حفص بن الوليد (ولايته الثانيه ١٢٤ ـ ١٢٧هـ) صيرهم الى اثنى عشر اثنىعشر . ويجدر ملاحظة كثرة هذه الكمية التى كانت تصرف للفرد الواحد ، ولكن المفروض أن كل رجل يعول اسرة . على ان انقاص العطاء والأرزاق كثيرا ما كان يثير اضطرابات ومشاكل عدة بين الأجناد المقيمين فى مصر ، وخصوصا فى أواخر الدولة الأموية وفى خلال الدولة العباسية عندما أصبح العرب يملكون أراضى زراعية ، اذ أصبحوا يؤدون خراجا وفى الوقت نفسه يأخذون عطاء ، وانقاص العطاء أو زيادة الخراج يكون معناه زيادة الاعباء المالية على العرب وكان هذا سببا فى ثوراتهم بمصر .

ولسنا نعرف كيف كانت الأعطيات تصرف للجند ، ولكن أكبر الظن أن الجند كانت فيهم رتب مختلفة من أمير وعريف وخليفة وقائد ونقيب وما الى ذلك من الرتب التى لم نتبين تماما الفرق بين كل منها فى فجر الاسلام ، ومن المحتمل أن العرفاء كانوا يتسلمون الأعطيات ويتولون تفريقها على الجند .

ويظهر أنه كان هناك وقت معين يعرفه الجند أو أهل الديوان ، يتسلمون فيه عطاءهم على رأس كل سنة . ويقال ان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قطع العطاء عن جند مصر سنة فكتب اليهم كتابا يعتذر فيه فى السنة الثالثة ، ويقول : « انى انما حبست

عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدو حضرنى فاحتجت فيه الى المال ، وقد وجهت اليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة فكلوا هنيئا مريئا وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه . »

وقد مر بنا فى معاهدة بابليون الاولى انه اشترط على المصريين ضيافة الأجناد فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام ، وهذا كان يوفر على الجند كثيرا من العناء عند انتقالهم من جهة الى أخرى فى أنحاء مصر .

٣ ـ موقع مصر الاستراتيجي وعبء الحامية المصرية :

اهتم الخلفاء بحامية مصر عقب الفتح مباشرة وذلك لأهمية موقعها ، فمصر تقع فى منطقة يسهل منها التوسع جنوبا وغربا وشرقا بل وشمالا عن طريق البحر المتوسط ، أى أنها قاعدة للفتوحات والتوسع ما دامت محتفظة بقوتها ، أما اذا تطرق اليها الضعف فان العدو يهددها من هذه الجهات . أى أن مركز مصر يتطلب السهر دائما على شئونها والعناية بالجيش الذى يحميها . وليس غريبا أن نرى الرواة ينسبون الى الرسول صلوات الله عليه وسلامه أحاديث خاصة بهذا الشأن ، فقد روى عبد الله بن لهيعة عن حديث لعمرو بن العاص أنه قال : « حدثنى عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض. قال أبو بكر رضى الله عنه :ولم ذلك يا رسول الله؟ قال : لأنهم فى رباط الى يوم القيامة » (١) وروى أيضا أن عمرو ابن العاص قال فى خطبة له بمصر « واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ولاشراف قلوبهم اليكم ، والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية » (٢) .

ومر بنا كيف كانت حامية مصر فى ازدياد بعد الفتح . وظلت مصر بعد الفتح قاعدة للفتوحات والتوسع تخرج منها

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٤ج٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦ .

جيوش الخلافة جنوبا وغربا ، اما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التى ذهبت لفتح النوبة أو لفتح برقة ، واما لمشاركة جيوش الخلافة فى حملاتها للتوسع غربا .

ومر بنا أن اخضاع برقة وطرابلس كان على يد جنود عمرو ابن العاص ، وكتب البلاذرى « كان أهل برقة يبعثون بخراجهم الى والى مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب » (١) .

أما فتح شمال افريقية فبدأ فى سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) بقيادة خلفه فى ولاية مصر وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان وكان معه جنود من حامية مصر وجنود آخرون أمده بهم الخليفة . ونجح الجيش الاسلامى فى الوصول الى الموضع الذى تقوم فيه الآن مدينة القيروان ، ثم انحدر الى الجنوب الغربى وأوقع بجيش البيزنطيين هزيمة منكرة عند سبيطله وأصاب غنائم كثيرة ، ولكن البيزنطيين كانت لهم حاميات أخرى فى قلاع حصينة ومدن منيعة ، ولعل عبد الله بن سعد كان يخشى أن يعودوا الى الهجوم فقبل ما عرضه عليه عظماء افريقية حين تقدموا اليه بأن يترك البلاد على أن يأخذ منهم غرامة حربية كبيرة فرجع الجيش الى مصر مثقلا بالغنائم بعد حملة دامت نحو عام كامل أدرك فيها ضعف افريقية وسهولة فتحها وبذر فيها الفوضى وشجع قبائل البربر على الخروج على طاعة البيزنطيين .

وكان منتظرا أن يعود العرب فى مصر الى فتح افريقية ولكن أزمة الخلافة والنزاع بين على ومعاوية ، والشأن الذى كان لمصر فى الثورة على عثمان ، ثم النزاع على الخلافة من بعده ، كل ذلك ترك لافريقية فترة هدوء وسلام وأبعد عنها الفاتحين المسلمين نحو سبعة عشر عاما .

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

ولما استقر الأمر لبنى أمية عاد عمرو بن العاص الى ولاية مصر وعاد الجند المسلمون فى مصر الى التطلع نحو الغرب ، ولكن عمرو ابن العاص توفى سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) وخلفه ابنه عبد الله ، ثم عزله الخليفة معاوية ، وولى على مصر معاوية بن حديج زعيم الحزب الأموى بمصر فى أثناء النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان •

وخرج معاوية بن حديج الى أفريقية بأمر من معـــاوية بن أبى سفيان على رأس جيش من حامية مصر سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) فهزم جيشـــا بيزنطيا كبيرا نزل من البحر عنــد Hadrumetum (سوسة الحالية) واستولى على حصن جلولاء ثم رجع الى مصر محملا بالغنائم •

وأتى بعد ذلك دور احتلال افريقية وفتحها فتحا منظمـــا ، وكان ذلك على يد عقبة بن نافع الذى شيد مدينة القيروان سـنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) وبالرغم من ذلك فان افريقية لم تصبح فى عهده ولاية قائمة بذاتها تتبع الخـلافة مباشرة ، بل ظلت ملحقة بولاية مصر ، بل ان عقبة بن نافع نحى عن حكمها حين عهد معاوية بن أبى سفيان بولاية مصر والمغرب لمسلمة بن مخلد الانصـارى فولى المغرب أبا المهاجر أحد مواليه • ولـكن عندما ولى الخلافة يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع الى قيادة المسلمين فى افريقية سنة ٦٢ هـ (٦٨١ م) فقام بحملة واسعة النطاق فى شمالى افريقية هـــزم فيها جيوشا من الروم والبربر • وقيل انه تقدم الى أن وصل الى شاطىء المحيط عند طنجة ،ويروى أنه قال حينئذ : «يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهـــدا فى سبيلك » • ولكن الروم والبربر اتحدوا ضد عقبة بزعامة كسيلة ، وقتل عقبة وانهـــزم جيشه سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) واضطر المسلمون الى التخلى عن كل فتوحاتهم غربى برقة وارتد عن الاسلام معظم البربر الذين كانــوا أسلموا قبل ذلك • وحين ولى مصر عبد العزيز بن مروان عاد الى

التطلع نحو افريقية لينشر الاسلام فيها وليحررها من الاحتلال البيزنطى وليعيد نفوذ العرب هناك • فأرسل عبد العزيز بن مروان جيشا عقد لواءه لزهير بن قيس البلوى • واستطاع المسلمون أن يهزموا جيوش الروم والبربر سنة ٧٠ هـ (٦٨٩م) وقتل فى هذه المعركة كسيلة زعيم البربر ، وترك زهير بن قيس حامية بالقيروان ورحل يريد الرجوع الى مصر ولكنه فوجىء فى برقة بحملة أنزلها الروم من البحر حين بلغهم أنه تقدم من برقة الى افريقية وترك برقة خالية فعاثوا فيها فسادا وقاتلوه هو ومن معه حين عادوا من افريقية فى طريقهم الى مصر ، وكان النصر للبيزنطيين وقتل زهير ومعظم جنوده • وعزم الخليفة عبد الملك بن مروان على الانتقام لهذه الهزيمة وكان النزاع بينه وبين عبد الله ابن الزبير قد انتهى بقتل عبد الله ، فاستطاع الخليفة أن يرسل الى افريقية جيشا كبيرا بقيادة حسان بن النعمان الغسانى • ونجح هذا الجيش فى طرد الروم من قرطاجنة بمساعدة الاسطول الاسلامى سنة ٧٧ هـ (٦٩٨ م) ، ثم تحول الى البربر فى جبل أوراس حيث نجحت زعيمتهم « الكاهنة » فى توحيد كلمتهم وهزمت المسلمين• فتقهقر حسان ومن بقى من جيشه الى برقة ، وظل فيها خمس سنين ، كانت الكاهنة خلالها تحكم افريقية حكما مطلقا قوامه الظلم والعسف ، والظاهر أنها ظنت أن المسلمين يريدون استغلال بلادها ، وحمل الغنائم منها فلجأت ـ حين شعرت بقرب هجومهم ـ الى تخريب البلاد وهدم العمائر وقطع الاشجار مما أثار الحضر والمشتغلين بالزراعة من سكان البلاد سواء أكانوا من البربر أم من الروم • واستطاع المسلمون بقيادة حسان بن النعمان أن يفيدوا من هذه الحال ، ورحب بهم كثيرون من السكان واستطاعوا أن يوقعوا بجيش الكاهنة هزيمة منكرة وقتلت الكاهنة فى مكان يعرف اليوم ببئر الكاهنة • وهكذا استرجع حسان افريقية للعرب ، ونشر لواء الأمن فى ربوعها ، ثم تسلم مقاليد الحكم بعده

موسى بن نصير ، وتختلف الرواية فى تاريخ ولاية موسى بن نصير لافريقية فالبعض يقول انها كانت فى سنه ٧٨ هـ أو ٧٩ هـ فى عهد عبد الملك بن مروان ويقول البعض الآخر انها كانت فى سنة ٨٦ هـ أو ٨٩ هـ فى عهد ابنه الوليد بن عبد الملك • ومر بنا أن حسان بن النعمان الغسانى قدم من الشام الى مصر ليتولى أمر المغرب فى سنة ٧٨ هـ وسأله عبد العزيز بن مروان ألا يعرض لطرابلس فأبى حسان ذلك فعزله عبد العزيز وولى موسى بن نصير مولى لخم أمر المغرب كله • وهذه الرواية تؤكد سلطان والى مصر عبد العزيز بن مروان على ولاة المغرب اذ أن شمالى افريقية كان يتبع مصر منذ الفتح العربى •

وقد يكون عبد العزيز بن مروان عزل حسان بن النعمان لسوء تفاهم بينهما ثم أعاده ثانية ، لأن معظم الروايات تجمع على أن حسان بن النعمان والى افريقية لبث على ولاتها حتى وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان ولما ولى عبد الله مصر (٨٦ ـ ٩٠ هـ) عزل عبد الملك بن مروان ولما ولى عبد الله بن عبد الملك مصر (٨٦ ـ ٩٠ هـ) عزل حسان بن النعمان واختار لولاية افريقية موسى بن نصير • وهذا الرأى أكثر اتفاقا مع سير الحوادث فى افريقية • وأصبحت افريقية منذ وليها موسى بن نصير ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر بعد أن كانت منذ بدء الفتوح تتبعها فى الادارة وتتلقى منها الجيوش الفاتحة •

ونلاحظ أن خطوة استقلال افريقية عن مصر كانت بعد وفاة عبد العزيز بن مروان • كذلك لم يكن موسى بن نصير جديدا فى الشئون الافريقية • فقد مر بنا أن مروان بن الحكم ترك لعبد العزيز بن مروان فى مصر موسى بن نصير ليكون له الوزير والمشير • وتقول الرواية ان موسى ينتسب الى بكر بن وائل (من القبائل العدنانية الشمالية) وان أباه نصيرا كان من النصارى الذين رآهم خالد بن الوليد عندما فتح العراق يقرءون الانجيل

فى كنيسة عين التمر (قرب شفاثا الحالية فى العراق) فسباهم فى سنة ١٢ هـ • وقيل انه ينتسب بطريق الولاء الى بنى لخم وان أباه نصيرا كان على حرس معاوية بن أبى سفيان ، ثم كان وصيفا لعبد العزيز بن مروان فأعتقه (١) • وقاد موسى بن نصير بعض الحملات البحرية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وحين ولى مصر عبد العزيز بن مروان تولى قيادة الجند وكان له الوزير والمشير • وقيل ان عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشر بن مروان على العراق سنة ٧٣ هـ ندب موسى بن نصير من مصر لمعاونته • ولما ولى الحجاج حكم العراق سنة ٧٥ هـ عاد موسى الى مصر فى خدمة أميرها عبد العزيز • وأرسله عبد العزيز بن مروان فى سنة ٨٤ هـ الى برقة وهناك اختبر مفاوز افريقية وقام بفتوحات كما سبى من أهلها جموعا كثيرة • أما الوليد بن عبد الملك فانه جعل موسى بن نصير واليا على افريقية على أن يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة •

ولم تكن مصر مركزا للعمليات الحربية البرية فحسب ، بل كان على العرب أن يعنوا بحماية سواحلها ، وأثبتت الحوادث أنهم كانوا محقين فى ذلك فكثيرا ما أغار الروم على الاسكندرية أو غيرها من الثغور • ويذكر ابن عبد الحكم (٢) والسيوطى (٣) أنه لما استقامت البلاد وفتح المسلمون الاسكندرية جعل عمرو بن العاص ربع الجند لرباط (٤) الاسكندرية صائفة يقيمون ستة أشهر •• ويعقبهم شاتية يقيمون ستة أشهر أيضا •• ويقال ان عمر بن

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان • ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٢٢ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٧٦ وما بعدها (طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ) •

(٢) فتوح مصر واخبارها (طبعة تورى) ص ١٩١ — ١٩٢ •

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٧١ (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

(٤) الرباط : المكان الذى يرابط فيه الجيش • والجمع ربط

الخطاب كان يبعث فى كل سنة جندا من أهـــل المدينة ليرابط بالاسكندرية وكان يكاتب الولاة قائلا : « لا تغفلها ولا تكشـف رابطتها ولا تأمن الروم عليها » • وكذلك اتبع عثمان بن عفان سنة عمر بن الخطاب ، وكاتب عبد الله بن سعد فى هذا الشـأن يقول :

« قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية وقـد نقضت الروم مرتين فألزم الاسكندرية رابطتها ثم أجر عليهـم أرزاقهم وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر » •

ولا نعلم اذا كان هذا يحدث فى حامية الاسكندرية فحسب أو فى الإسكندرية وحاميات البلاد الاخرى • وربما كان تغيير الحاميات ونقلها يقصد به العرب راحة الجند وتجنب تعويدهم الاقامة فى مكان واحد كما يتبع فى جيوش العصر الحديث •

٤ ـ المطوعة :

اقترن ظهور الاسلام بالجهاد فى سبيل اعلاء كلمة المسلمين، والدفاع عن الاسلام ودياره ، وتأديب من يقف دون هذين الهدفين • وكان مسلك الخلفاء المسلمين وعمالهم فى الفتوحات الاسلامية وتركهم الحرية الدينية لأهل البلاد المفتوحة واحترامهم حق الملكية يشهد بأن المسلمين لم يهدفوا الى نشر دينهم بالسيف• وعلى كل حال فان الجهاد فى الاسلام فرض كفاية وليس فرض عين، بمعنى أن الانسان غير ملزم بأدائه ما دام هناك عدد كاف من المحاربين يقومون به • ومع ذلك فان المسلمين كانوا يقبلون على الجهاد لظروف وأسباب كثيرة • أولها القضاء على الذين يقاومون نشر الاسلام ، ونيل الثواب فى الدنيا والآخرة ، ومن بينها انتظار الغنائم • وقد عرض القرآن الكريم لتوزيع هذه الغنائم ، اذ قال تعالى فى سورة الانفال (الآية ٤١) : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » •

وذكرت المراجع عدة روايات فى تطبيق هذه الآية الكريمة •

ووعد الله تعالى المؤمنين النصر على أعدائهم فى الدنيا وبشرهم بالنعيم فى الآخرة • كذلك وعد الله الذين يتقاعسون أو يجبنون فى الجهاد بالعذاب فى الآخرة •

وكان تشريع الجهاد فى السنة الثانية للهجرة والحث على قتال المشركين ، يهدف أولا الى دفاع المسلمين عن أنفسهم وعن

الدعوة الاسلامية عامة ، والاقتصاص من قريش التى الحقت بالمسلمين الوانا كثيرة من الأذى ، كما كان يهدف الى أن يأمن من يريد دخول الاسلام على نفسه فلا يخشى أن يتعرض له أحد .

وقد اتخذ الجهاد منذ عصر الخلفاء الراشدين شكل فتوحات متصلة . وكان الجهاد قائما على حدود الاسلام دائما ، وكان المسلمون لا يكادون ينقطعون عن غزو الاراضى البيزنطية كلما سنحت لهم الفرصة وسمح بذلك أى هدوء نسبى فى الميدان الداخلى بديار الاسلام . وكانت الربط على الحدود الاسلامية مقرا للمحاربين المتطوعين الذين يعيشون عيشة ملؤها الزهد والحماس الدينى والحربى .

وكان التجنيد فى الدولة العربية تطوعا فى البداية وكان شرف الجندية يتمناه كل عربى . وكانت روح الجهاد مشتعلة بين المسلمين عامة لا فرق فى ذلك بين الزعماء والرعية . وظلت روح الجهاد متقدة مشتعلة فى العصر الأموى وكان الخلفاء وأبناؤهم واخوتهم يشتركون فى الحرب والجهاد ويقودون الجيوش .

ونلاحظ أن التجنيد دخله نوع من الالزام فى عصر بنى أمية ونلمس ذلك حين نقرأ أخبار الحجاج فى المشرق . فحين قدم الحجاج واليا على العراق فى سنة ٧٥ هـ وضع نصب عينيه اعادة النظام فى معسكرات الكوفة والبصرة حتى يستطيع أن ينهض بأعبائه فى المشرق ولا سيما أن الجند كانوا قد بارحوا معسكر المهلب بن أبى صفرة ــ قائد محاربة الخوارج ــ بدون اذن منه ، وذلك بعد أن تلقوا خبر وفاة والى العراق بشر بن مروان . فكان أن أكد الحجاج فى خطبته الشهيرة فى الكوفة ضرورة عود جند المهلب ومما قاله فى خطبته : « ... الا ان أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم واشخاصكم الى محاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وقد أمرتكم بذلك وأجلت لكم ثلاثا ، وأعطيت الله عهدا ألا أجد أحدا من بعث المهلب بعدها الا ضربت عنقه » . وهكذا ساعد الحجاج المهلب على

أداء مهمته ، وخرج هو نفسه لمحاربة الخوارج • ولم يكد الحجاج يخمد الفتن في العراق والمشرق ويكسر من شوكة الخوارج حتى أرسل أغوانه للفتح •

والحق أن الحجاج كان يشتد في تجنيـــد الناس ، ولا يدع قرشيا ولا رجلا من بيوتات العرب الا أخرجه •ونحن لا نكاد نرى في المصادر العربية ما يساعد على أن نجلى غوامض هذه المسألة وأكبر ظننا أن حال التجنيد من تطوع والزام كان يتغير بين حين وآخر بتغير الامراء ، واختلاف ظروف القتال ، وقوة الخـلافة نفسها ونوع العناصر التى كانت تعتمد عليها فى تكوين الجيوش الاسلامية• ونلاحظ أن الجنـــد كانوا عربا فى بداية الامـر ، ثم بدأ القواد الفاتحون فى خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبدالملك يشركون أهل البلاد المفتوحة فى الجيش • فنرى موسى بن نصير يجند آلافا من البربر ســـكان شمالى افريقية وقام معظم فتح الأندلس على عاتقهم • كذلك أشرك قتيبة بن مسلم الباهلى أهـل بلاد ما وراء النهر مع العرب فى فتوحاتهم هناك • واشبـــترك الموالى فى العراق وايران مع الجيش العربى فى فتوحات المشرق •• وفى مصر كان ملحقا بالجيش طائفة تســـمى المطوعة وربما كان أساسها أهل البلاد • ويبدو أن المصريين، أو هؤلاء المطوعة ، كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى خدمة الجيش ، أو يســـاعدون الجيش العربى فى أوقات الضرورة • ولم يكن لهؤلاء المطوعة عطاء ولم يثبتوا فى الديوان انما كان عطاؤهم من الصدقات أو أموال الزكاة• ويذكر الكندى فى كتابه الولاة والقضاة أن مواحيز (١) مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة (٢) •

(١) الماحوز : المكان الذى يكون بين القوم وبين عدوهم وهو من استعمال أهل الشام ، أى الحدود
(Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes).

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤١٨ ــ ٤١٩ •

الفصل السادس

البحرية المصرية فى عهد عبد العزيز بن مروان

اشتهرت مصر عقب الفتح العربى لها بصناعة السفن التى كان يحتاج اليها أسطول الخلافة • والمعروف أن العرب عند ظهور الاسلام لم يكونوا شعبا بحريا ولكن عندما اتسعت امبراطوريتهم وشملت شعوبا وأمما بحرية ، وعندما اضطروا الى محاربة شعوب بحرية بدءوا يشعرون بحاجتهم الماسة الى أسطول يكون عونا لهم فى تحقيق أمانيهم فى مد سلطانهم وغزو الروم فى عقر دارهم • وكان طبيعيا أن يستخدم العرب فى بناء أسطولهم وفى غزواتهم البحرية شعوب الأمم التى سادوا فيها والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم • وقد أفاد العرب من خبرة المصريين البحرية ، ومن العمال المصريين أيما افادة وأصبحت مصر عقب الفتح مركزا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الاسطول بخيرة الملاحين والعمال المصريين والمعروف أن المسلمين بدءوا يغزون فى البحر ويعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥ هـ) • وقد كان عمر ابن الخطاب يخشى على المسلمين من غزو البحار ، ونعرف أن العلاء ابن الحضرمى ندب أهل البحرين حين كان أميرا عليها الى غزو فارس عن طريق البحر بغير اذن الخليفة فغرقت سفن المسلمين ، وغضب الخليفة عمر بن الخطاب على العلاء وأمر بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه • ولما فتح المسلمون الشام ألح معاوية بن أبى سفيان ـ وكان أميرا حينئذ على جند دمشق والاردن ـ على الخليفة عمر ابن الخطاب فى غزو البحر معللا ذلك بقرب الروم من حمص ، ولكن الخليفة لم يوافقه على ذلك لأنه خشى على المسلمين من ركوب البحر وقال فى ذلك : « والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » •

لكن الدولة العربية سرعان ما غيرت سياستها هذه ورأت ضرورة انشـاء اسـطول بحرى للغزو فى البحر وذلك فى خلافة عثمان بن عفان ، اذ وافق الخليفة على القتال فى البحر على آن يكون الاشتراك فيه تطوعا لا يحمل عليه أحد . وقد ساهمت مصر بنصيب وافر فى انشاء الأساطيل الاسلامية الأولى ، ويمكننا القول بأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى خلف عمرو بن العاص فى حكم مصر كان أمير البحر الثانى فى الاسلام . أما أمير البحر الأول فكان معاوية بن أبى سفيان فى أثناء ولايته على الشام وقبل أن تصير له الخلافة . فكان المسلمون يقـومون بغزواتهم البحرية ضـد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ، ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد . ونعرف أنه قدم أسطول لغزو الاسكندرية فى سنة ٣٤ هـ بقيادة الامبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى بن هرقل ، وكان والى مصر حينئذ هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفـة عثمان بن عفان ، فخرج الأسطول المصرى بقيادة عبد الله بن سعد لصد الروم ، وكان معاوية واليا على الشام حينئذ فأرسل أسطولا تحت امرة بسر بن أبى أرطأة اشترك مع الأسطول المصرى فى صد الروم . وأسفرت هذه المعركة عن أول انتصار بحرى عظيم للعرب ضد البيزنطيين فى سنة ٣٤ هـ (٦٥٥ م) ، وسميت هذه المعركة باسم « ذى الصوارى » وذلك لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال . وفى هذه المعركة ربط العرب السـفن العربية الى السفن البيزنطية وقلبوا قتال البحر الى قتال بر .وتسـمى موقعة ذى الصوارى أيضا باسم موقعة فينكس Phoenix ويرجح معظم المستشرقين أن هذه الموقعـة البحـرية حدثت على سـاحل ليسـيا Lycia جنوبى آسـيا الصغرى بجوار ثغر فينكس (فنكى اليوم) ، ونحن نرجح انها حدثت بالقرب من ثغر فونيكة Phoenicus غربى الاسكندرية .

وكانت صناعة الصفن الحـربية مزدهـرة فى وادى النيـل

وأصبح اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية • وعقد المقريزى فى كتابة الخطط (ج ٢ ص ١٨٦) فصلا فى ذكر المواضع المعروفة بالصناعة ، كما أشار فى مواضع أخرى من هذا الكتاب (ج ١ ص ٣٠١) الى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست فى سنة ٥٤ هـ ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتالهم • وسميت جزيرة الروضة حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى أحيانا « جزيرة مصر » • ولكننا نرجح أن « الصناعة » أنشئت فى مصر الاسلامية قبل هذا التاريخ، فعبد الله بن سعد غزا غزوته البحرية فى سنة ٣٤ هـ وليس بعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدءوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان وأن قتال الروم جعل المسلمين يعنون بصناعة السفن فى جهات مختلفة من أنحاء دولهم بعد أن كانت الصناعة فى مصر وحدها • فيذكر البلاذرى فى فتوح البلدان أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم السواحل الاسلامية وكانت الصناعة بمصر فحسب فأمر معاوية بن أبى سفيان بانشاء دار للصناعة فى عكا •

وفى امارة عبد العزيز بن مروان نرى مصر تساعد فى انشاء دار للصناعة فى تونس • اذ بعث عبد الملك بن مروان الى حسان ابن النعمان عامله على افريقية يأمره باتخاذ صناعة بتونس وكتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده لانشاء دار صناعة فيها • أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا الى دار الصناعة ما تحتاج اليه من خشب لصنع المراكب •

ولا شك أن اهتمام عبد الملك بن مروان بالقوة البحرية اهتماما شديدا يرجع الى ما نالته الدولة العربية على يد بحرية

البيزنطيين اذ ثار البربر فى وجه العرب واستندوا الى مساعدة البيزنطيين البحرية الذين ظلوا يهددون العرب من البحر الى أن نجح حسان بن النعمان فى تخريب قرطاجة وانشاء قاعدة بحرية أمينة فى تونس • وقوى مركز العرب فى شمالى افريقية بعد اهتمامهم بالبحر وبناء السفن • والواقع أنه منذ ولاية حسان بن النعمان الغسانى على افريقية (٧٣ ـ ٧٩ هـ = ٦٩٣ ـ ٦٩٩ م) وفى امارة عبد العزيز بن مروان على مصر ، أصبح شمالى افريقية مركزا بحريا ثالثا أضيف الى المركزين العربيين فى مصر والشام•

ويظهر أن بناء السفن فى مصر كان له شأن عظيم فى فجر الاسلام ولا سيما فى العهد الأموى • فقد بينت أوراق البردى مهارة المصريين فى صناعة السفن ومهارة الملاحين المصريين كما بينت تقدير الحكومة الاسلامية المركزية لتلك المهارة ومدى استغلالها على يد الامراء المسلمين •

وأظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقاو والتى ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة ، وفى القلزم (السويس الحالية) وفى الاسكندرية • وتبين تلك الأوراق أن قرة بن شريك ـ الذى ولى مصر بعد وفاة عبد العزيز بن مروان بنحو أربع سنوات ـ كثيرا ما كان يطلب من صاحب كورة أشقوه أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى اعداد الاسطول المصرى الحربى • وتبين الاوراق البردية أن أمير مصر كان يتفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى • كذلك كان يفرض على كور مصر قدرا من الأدوات - والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيمها ، وكذلك يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى اعداد الأسطول •

ولم يقتصر نشاط المصريين على اعداد الاسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين للعمل فى أسطول المغرب ، أو أسطول المشرق ، والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية ٠

ولا بد أن المصريين كانوا يصنعون أيضا سفنا نيلية غير تلك السفن الحربية لأن الطريق المائى فى مصر كان يستخدم كثيرا للنقل والتجارة فى ذلك العهد ٠ وطبيعى أنه كانت هنـاك سفن بحرية معدة للتجارة الخارجية ٠

ويتضح من المصادر القديمة أن صناعة السفن الحربية ظلت زاهرة فى مصر طوال عصر الولاة ٠ وكتب المقريزى أن بعض مناطق وادى النيل كان بهـــا أشجار لا تحصى من سنط ، لها حراس يجمعونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منهـــا الا ما تدعو الحاجة اليه وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منـــه مائة دينار ٠

والحق أن صناعة السفن فى مصر ، وخاصة السفن الحربية المعدة لمحاربة الأعداء وللدفاع عن الشواطىء ، كانت من أهـــم الصناعات فى فجر الاسلام ، كما أن المصريين كان لهم الفضـــل الأكبر فى عظمة الدولة الاسلامية البحرية ، اذ كانت الخلافة تعتمد عليهم فى انشاء أسطولها الحربى ، بل المعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فحسب وظل كذلك الى زمن معاوية بن أبى سفيان وحتى بعد ذلك العهد كانت الخلافة تســتخدم العمال والفلاحين المصريين فى دور الصناعة التى أنشـأتها فى المشرق والمغـرب كما يتبين من أوراق البردى ٠ ثم أصبحت الخـدمة فى الاسـطول شرفا عظيما يتمناه كلّ امرىء فى مصر ٠ ولعـــل خير من يعبر عن ذلك

مؤرخنا المقريزى (١) • اذ يذكر أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى سنة ٢٣٨ هـ فى خلافة المتوكل وفى ولاية عنبسة بن اسحق على مصر « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وأنشئت الشوانى (٢) برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو • وكان لا ينزل فى رجال الاسطول « غشيم » ولا جاهل بأمور الحرب • هذا وللناس اذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله واقامة دينه ، لا جرم أنه كان لخدام الاسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة فى أنه يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه • وكان من غزو الاسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ • فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الاسلام بلاد العدو فانها كانت تسير من مصر والشام ومن افريقية » •

واذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع الى الشعوب التى فتحوها والتى تعلموا منها هذا الفن والتى استخدموها فى حاجتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع الى مصر والمصريين •

وليس فى المراجع العربية ما يمكننا « بواسطته » أن نعرف شيئا يستحق الذكر عن أشكال السفن الحربية المصرية ومعداتها فى فجر الاسلام ولكن أكبر الظن أنها لم تكن تختلف كثيرا عن السفن المعروفة عند الروم فى ذلك العصر • وطبيعى أن المراكب الحربية كانت متنوعة فى أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك

(١) الخطط ج ٢ ص ١٩١ •

(٢) الشونة : المركب المعد للجهاد في الحرب والجمع شوان •

الأسماء المختلفة التى أطلقت عليهـــا بعد ذلك مثـــل الحراقات والشبونات والطرادات والعشاريات والشلندات والمسطحات (١) ٠

ومما يعرف من تقاليد المسلمين فى القتال حينئذ أنهم كانوا يصحبون نساءهم فى المعارك البحرية ٠ ونعرف أن امرأة عبد الله ابن سعد بن أبى سرح ـ وهى بسيسـة بنت حمـزة بن يشرح ـ شهدت معه موقعة ذى الصوارى ٠

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين (القاهـرة ١٩٣٧) ص ٥٠ حاشية ٥ وما جاء فيها من مراجع ٠ وانظر مادة سفينة فى ملحق دائرة المعارف الاسلامية ٠

الفصل
السابع

القضاء في مصر في عهد عبد العزيز بن مروان

أدخل العرب فى مصر نظاما قضائيا يقـوم على أسـاس الشريعـة الاسـلامية ، ويختص بالفـاتحين من العرب أو الذين يسلمون من أهل البلاد ، أما الذميون فكان لهم قضاؤهم الا اذا احتكموا الى القاضى المسلم فله أن يحكم بينهم بالعدل ، قال تعالى : (فان جاءوك فاحـكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسـط ان الله يحب المقسطين) (١) .

وكان القضاء في الدولة الاسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة، ولكن لما كان الخليفة لا يمكنه مباشرة كل أمور القضاء بنفسـه ولا سيما بعد أن اتسعت رقعة الدولة الاسلامية اتساعا كبيرا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، نجده يفوض القضاء الى غيره كما كان يفوض الى الولاة حكم الولايات المفتوحة . وفى بعض الأحيان كان والى مصر يعين القاضى ثم يقره الخليفة على ذلك ، وأحيانا كان الوالى يعين القضاة بتفويض من الخليفـة كما كان يفعل عبد العزيز بن مروان . ومر بنا أن مروان بن الحكم حين قدم الى مصر ليستخلصها من عامل ابن الزبير سأل عن القاضى فقيل هو عابس بن سعيد . لكن مروان بن الحكم لم يقره فى منصبه الا بعد أن عمل له ما يشبه الاختبار ليتيقن صلاحيته لمنصبه ولأن القضاة كانوا ينتخبون عادة من بين أعلام الفقهاء وأتقيائهم وذوى النزاهة منهم . ويذكر الكندى أن مروان بن الحكم دعا عابس بن سعيد وقال له : « أجمعت القرآن؟ قال : لا . قال : فتفرض الفرائض ؟ قال : لا . قـال : فتكتب بيديك ؟ قال : لا . قال : فبم تقضى ؟ قال : أقضى بما علمت

(١) سورة المائدة آية ٤٥ .

وأسأل عمـا جهلت . قال : أنت القاضى » (١) . ثم سأله مروان بعد ذلك عن فريضة فأصاب ، وسـأله عن مسـألة فى الطلاق فأصاب وسأله عن شىء من القرآن فأصاب ، فقال مروان : « عباد الله !! ألا تعجبون من عابس زعم أنه لا يحسن الفرائض والقرآن ولكن المؤمن يهضم نفسه » .

وقيل عن عابس بن سعيد انه جالس عقبة بن عامر بن قيس ابن جهينة وعبد الله بن عمرو بن العاص حتى استفرغ علمهما . وكان عقبة واليا على مصر من قبل معاوية من ذى الحجة سنة ٤٤ هـ الى ربيع الأولى سنة ٤٧ هـ . ووصفه الكندى بقوله : « كان عقبة قارئا فقيها مفرضا شاعرا، له الهجرة والصحبة والسابقة»(٢) وقيل ان عقبة بن عامر الجهنى كان صاحب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء التى يقودها فى الأسفار ، أى أنه كان يقود راحلة الرسول عليه السلام (٣) .

أما عبد الله بن عمر بن العاص فقد كان أشهر من علم بمصر من الصحابة وقد أسلم عبد الله قبل أبيه . وكان فاضلا عالما قرأ القرآن والكتب المتقدمة واستأذن النبى عليه الصلاة والسلام فى أن يكتب عنه فأذن له .

وحين غادر مروان بن الحكم مصر فى رجب سنة ٦٥ هـ وترك ابنه عبد العزيز واليا عليها ، أقر عبد العزيز عابس بن سعيد على القضاء والشرط . وظل عابس على القضاء الى أن توفى سنة ٦٨هـ

---

(١) : الولاة والقضاة ص ٣١٢

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٧

(٣) نفس المرجع ص ٣٧

ثم ولى القضاء بشير بن النضر المزنى من قبل عبد العزيز بن مروان وكان أبوه النضر ممن حضر فتح مصر وأقام بهـــا ولبث بشير على القضاء الى أن توفى سنة ٦٩ هـ ، فولى عبد العزيز بن مروان على القضاء عبد الرحمن بن حجيرة الأكبر . وقيل فى سبب توليتـه انه كان فقيها من أفقه الناس فولاه عبد العزيز القضـــاء . وذاع صيت ابن حجيرة فى العلم والفقه وقيل « ان رجلا من أهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة فقال : من أى الأجناد أنت ؟ قال : من أهل مصر .

قال : تسألنى وفيكم ابن حجيرة ! » (١)

وقبل أن يولى عبد العزيز بن مروان ابن حجيرة القضاء ولاه القصص . وكانت ولاية القصـــــص تعنى الاشراف على الوعظ والارشاد الدينى وتوجيه النـــاس وجهة صحيحة . وقيل لما ولى عبد العزيز بن مروان عبد الرحمن بن حجيرة القصص خبر أبوه بذلك وكان بفلسطين أو بالشام فقال: « الحمد لله ذكر ابنى وذكر، فلما ولاه القضاء أخبر أبوه بذلك فقال : هلك ابنى وأهلك » وهذا القول يدل على مدى تقدير الناس وهيبتهم لوظيفة القضاء وخشيتهم من الزلل فى الحكم أو الابتعاد عن الحق والصواب . وأثر عن ابن حجيرة نفسه أنه قال : « ان القاضى اذا قضى بالهوى احتجب الله عز وجل منه واستتر » وكان لابن حجيرة آراء أصـــــيلة فى القضاء وفى التشريع وفى المعاملة ، فمثلا كان لا يحجر على سفيه فى ماله ولكن يشهره وينهى الناس عن معاملته ويقر ماله بيده يصنع به ما شاء وقيل ان رجلا أتاه فقال : انى نذرت .. لا أكلم أخى أبدا . فرد عليه قائلا : ان الشيطان ولد له ولد فسماه نذرا وانه من قطع ما أمر الله عز وجل به أن يوصل حلت عليه اللعنة . كذلك أثر

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣١٦

عن ابن حجيرة قوله : « لأن أسلف دينارين فيردان ثم أسلفهما فيردان على أحب الى من أن اتصدق بهما » •

وكان ابن حجيرة يجمع مع القضاء ولاية القصص ، وولاية بيت المال ، وبيت المال هو الذى كان يحفظ فيه أموال الدولة • وكان ابن حجيرة يتقاضى ألف دينار فى السنة ، وفى ذلك يقول الكندى : « فكان رزقه فى السنة من القضاء مائتى دينار ، وفى القصص مائتى دينار ، ورزقه فى بيت المال مائتى دينار ، وكان عطاؤه مائتى دينار ، وكانت جائزته مائتى دينار ، وكان يأخذ ألف دينار فى السنة فلا يحول عليه الحول وعنده منها شىء يفضل على أهله واخوانه » (١) •

وظل عبد الرحمن بن حجيرة على قضاء مصر الى أن توفى فى المحرم سنة ٨٣ هـ فكانت ولايته على قضاء مصر اثنتى عشرة سنة•

وبعد وفاة عبد الرحن بن حجيرة ولى عبد العزيز بن مروان القضاء مالك بن شراحبيل الخولانى وذلك فى المحرم من سنة ٨٣ هـ ومر بنا أن عبد العزيز بن مروان كان قد أرسل من مصر الى الحجاز حملة من ثلاثة آلاف شخص بقيادة مالك بن شراحبيل لمعاونة الحجاج بن يوسف الثقفى للقضاء على عبد الله بن الزبير • وفعلا نجح هذا البعث فى مهمته ، وأجمع المصريون على أن قاتل عبد الله بن الزبير هو عبد الرحمن بن يحنس أحد موالى قبيلة تجيب وأحد أفراد البعث المصرى ، ولهذا أمر عبد الملك بن مروان بابتناء دار مالك ومسجده ، كذلك كان الحجاج بن يوسف يبعث كل سنة الى مالك بن شراحبيل بحلة وثلاثة آلاف درهم • وكان مالك ابن شراحبيل مقدما عند أمير مصر عبد العزيز بن مروان ولهذا نراه يوليه قضاء مصر بعد وفاة ابن حجيرة الأكبر • لكنه صرف عن القضاء فى صفر سنة ٨٤ هـ فكانت ولايته على قضائها سنة

(١) الكندى : الولاة والقضاة • ص ٣١٧

وشهرا ولم يذكر المؤرخون سبب صرف عبد العزيز بن مروان له عن القضاء • ثم ولى عبد العزيز يونس بن عطية الحضرمى القضاء، ولما توفى حسان بن عتاهية صاحب شرطة عبد العزيز فى جمادى الأولى سنة ٨٤ هـ جمع عبد العزيز ليونس بن عطية القضاء والشرطة • وكان يونس بن عطية أول قاض بمصر من حضرموت •

ويقال ان عبد الملك بن مروان كتب الى عبد العزيز بن مروان يعلمه أن أهل الشام اختلفوا فى مسألة شرعية خاصة بالنفقة وطلب منه أن يكتب اليه برأى أهل مصر ، ولما جمع عبد العزيز شيوخ مصر وسألهم كان يونس بن عطية فى أخرياتهم فقال له عبد العزيز تكلم ، فتكلم فأعجب به عبد العزيز ولما سألهم عنه قالوا له : هذا من سادات حضرموت فولاه القضاء • وكثيرا ماكان يحدث يونس بن عطية أمير مصر عبد العزيز بن مروان عن هجرة أبيه وأعمامه وهو طفل صغير من حضرموت الى المدينة فى أواخر أيام عثمان بن عفان •

وكان أبوه وأعمامه يجالسون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان هو يجلس معهم أحيانا • وكان مما ذكره يونس ابن عطية أنه دخل مع أبيه وأعمامه فى مجلس عثمان بن عفان • ليستأذنوه فى المسير الى مصر ، وشاهد يونس فى المجلس على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب •

وظل يونس بن عطية على القضاء « والشرط » الى مستهل سنة ٨٦ هـ ثم صرف عنها فكانت ولايته سنة وسبعة أشهر • وكان سبب صرف عبد العزيز بن مروان ليونس بن عطية هو مرض يونس • وولى عبد العزيز على القضاء ابن أخى يونس وهو أوس بن عبد الله بن عطية بن أوس وذلك فى المحرم من سنة ٨٦هـ أما الشرطة فولى عبد العزيز عليها عبد الرحمن بن معاوية بن حديج • ثم مات يونس بن عطية فى ربيع الأول سنة ٨٦ هـ وبعد

وفاته عزل عبد العزيز بن مروان أوسا عن القضاء فكانت ولايته شهرين ونصفا ٠

ثم ولى عبد العزيز بن مروان القضاء صاحب شرطته عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج وجمع له الشرطة والقضاء فى ربيع الأول سنة ٨٦ هـ وتوفى عبد العزيز بن مروان فى جمادى الأولى سنة ٨٦ هـ وعبد الرحمن بن معاوية على القضاء والشرطة٠
وكان عبد الرحمن بن معاوية بن حديج أول قاض بمصر نظر فى أموال اليتامى حتى لا تضيع حقوقهم ، ووكل بذلك عرفاء القبائل ، فكان عريف كل قوم يكشف عن أموال اليتامى ويشهد عليها ويشهرها ويكتبها فى كتاب يحفظ عند القاضى ٠

والمعروف أن اختصاصات القضاة كانت واسعة ومتعددة ولكنها كانت كاختصاصات سائر الموظفين غير محدودة ٠ وطبيعى أن القاضى كان يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الاسلامى وهى القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد أو القياس ٠
ولم يكن هناك محكمة خاصة للفصل فى القضايا انما كانت مجالس القضاء تعقد فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ٠

ولم تكن أحكام القضاة تدون فى بادىء الامر ، ولكن حدث مرة أن اختصم الى القاضى سليم بن عنز التجيبى (٤٠ ـ ٦٠هـ) فى ميراث فقضى بين الورثة ، ثم أنكروا حكمه وعادوا اليه ثانية فقضى بينهم وكتب بذلك سجلا فكان أول قاض بمصر سجل سجلا بقضائه وتبعه فى ذلك القضاة من بعده ٠ ويروى الكندى عن أحد أحفاد عبد الرحمن بن حجيرة الاكبر أنه رأى قضية لجده عند آل قيس ابن زبيد الخولانى تاريخها شهر رمضان سنة ٧٠ هـ ٠

وكان يعاون القضاة طائفة من الشهود كانوا بمثابة موظفين دائمين ، وكان الشاهد المعترف به يسمى الشاهد العدل ، ويعرف الشهود أيضا باسم العدول ٠ وكان القضاة بمصر منذ فتحها العرب

يعنون بالسؤال عن الشـــهود ومعرفة مـدى أمانتهم ونزاهتهم ٠
والراجح أن الشهود كانوا يشبهون من بعض الوجوه مشايخ البلاد
أو مشايخ الحارات فى عصرنا الحـــالى ٠ فكان على كل شاهد أن
يعرف أحوال أهل الحى الذى يسكنه ومنازعاتهم وخصوماتهم ، ومن
أجل ذلك كان لشهادة هؤلاء الشـــهود قيمتها الخاصة فى القضاء
وطبيعى أن المفروض فيهم النزاهة وحسن السيرة ٠

الفصل الثامن

مشرق الاسلام فى مصر وبوادر تعريبها زمن عبد العزيز بن مروان

١ ـ حكومة العرب والأقباط .

٢ ـ بوادر التعريب .

٣ ـ القبائل العربية في مصر .

١ ـ حكومة العرب والأقباط :

كان للفتوحات العربية أثر ملحوظ في سرعة انتشـار الدين الاسلامى فى كافة الاقاليم التى فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية • فدخل الدين الاسلامى فى هذه البلاد بدخول العرب فيها وما لبث أن تغلب على الاديان التي وجدت قبله وأصبح المسلمون أغلبية فيها • ومع ذلك فالثابت أن الدولة العربية التى قامت على أساس الدين الاسلامى والتي كان شعارها حماية ذلك الدين والقيام لنصرته لم تضطهد أحدا من أهل الذمة أو ترغمه على ترك دينه، ذلك أن الاسلام لا يرضى الاكراه للدخول في الدين الاسلامى وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : (لا اكراه فى الدين قـد تبين الرشد من الغي)(١) ويقول سبحانه مخاطبا الرسول : (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهـم جميعـا أفأنت تكره النـاس حتى يكونوا مؤمنين) (٢) • الى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التى تفيد هذا المعنى • ورأينا العرب فى مصر وفى غيرها من البلاد التى فتحوها يخيرون أهالى البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور : الاسلام أو الجزية أو الحرب • ولم يشتط العرب فى تقدير الجزية ، بل راعوا فى تقديرها ثروة الفرد ، فالغنى لا يجبى منه مثل الفقير أو متوسط الحال • ويقول الكونت دى كاسترى فى كتابه عن الاسلام : « ان الاسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يعومون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه كما فى الديانة المسيحية ولو أنه كان للاسلام أناس قوامون لسهل علينا

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦
(٢) سورة يونس آية ٩٩

معرفة السبب فى انتشـــاره السريع فانا شـاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام فى حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتـح المدائن والاقاليم بجيوشه التى كان يصلى بهـــا الامم حربا تجعل الولدان شيبا ولكنا لا نعلم للاسلام مجمعا دينيا ولا رسلا وأحبارا وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان • » (١)

تلك كانت سياسة العرب الدينية العامة فى مصر وفى غيرها من البلاد التى فتحوها ، لكن الذى نعنى به هنا هو ما كان من أمرهم فى مصر • فقد دخل الاسلام فيها لأول مرة بدخول العرب فاتحين• ويلاحظ حنا النقيوسى ـ الراهب القبطى الذى توفى فى أواخر قرن الفتح ، أى فى أواخر القرن الاول الهجرى والسابع الميلادى ـ أنه منذ دخول العرب مصر وقبل أن يتم فتحها نهـائيا أسلم كثير من المصريين وحاربوا المسيحيين بعد اسلامهم ومن هؤلاء يوحنـا أحد رهبان دير سينا(٢) •

ولا شك أن بعض الذين أسلموا زمن الفتح كان اسلامهم عن ايمان واعتقاد ، كما أسلم البعض الآخر رغبة فى الانتماء الى دين الطبقة الحاكمة • ثم أخذ الدين الاسلامى ينتشر تدريجا فى مصر كلما تقادم العهد بالعرب فيهـــا ، كما وجدت فترات معينة كان التحول فيها الى الدين الاسلامى بكثرة ملحوظة •

وكان معظم المصريين آنذاك من الاقباط الذين تسميهم بعض المراجع « اليعـــاقبة » والذين غلب عليهم اسم القبط أو الاقباط

(١) De Castries, Henri : L'Islam, Impressions et Etudes, Paris 1896.

تعريب أحمد فتحى زغلول باشا بعنوان : الاسلام • خواطر وسوانح ص ٣٩ ـ ٤٠ (مطبعة السعادة بالقاهرة)

(٢) حنا النقيوسى : تأريخ ص ٥٨٥ Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte éthiopien, publié et traduit par M.H. Zotenberg (Paris 1883).

الارثوذكس • وما عدا ذلك كانت مصر تحوى طوائف أفرادها ينتسبون الى عدة شعوب وأقوام كان أهمها قبيل الفتح العربى طائفة الروم الملكانيين أى الذين يدينون بالمذهب الملكانى ـ وكانوا فى عداء مع الاقباط ـ وطائفة اليهود .• وكان هناك أيضا أفراد من الاقباط يدينون بالمذهب الملكانى أو الخلقدونى ، ولكن هذه كانت أحوالا شاذة ، ونحن اذا تحدثنا عن المصريين في ذلك العصر انما نتحدث عن الاقباط الاورتودكس • ونلاحظ أن العرب فى فتحهم لمصر كانوا يحاربون البيزنطيين لا المصريين وكان المصريون اذ ذاك قد أنهكتهم الأعباء المالية والاضطهادات الدينية حتى ان المؤرخين المصريين المسيحيين في العصور الوسطى يذكرون أن انتصار المسلمين هو غضب من الله على الروم • كذلك يتجلى لنا من ثنايا كتاباتهم مدى العداوة بينهم وبين الروم • فيذكر حنا النقيوسى أن جميع الناس يذكرون أن سبب انتصار المسلمين على الروم هو استبداد هرقل والاضطهادات التى أنزلها بالأرتودكس والتى كان « قيرس » الآلة المحركة لها • كذلك يذكر المؤرخ ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونين ان الله كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة •

لهذا لانعجب اذ رحب المصريون بالعرب واعتبروهم منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجائر • على أننا لا نجد فى المراجع القديمة ما يشير اليه بعض المحدثين من أن الأقباط استنجدوا بعمر بن الخطاب لينقذهم من ظلم الروم ، أما فيما يختص بترحيب المصريين بالعرب ففى المصادر القديمة اشارات كثيرة تفيد هذا المعنى • بل ان حنا النقيوسى كتب أن المصريين الذين تركوا الدين المسيحى وأسلموا صحبوا جيوش العرب فى أثناء الفتح •

ويذكر ابن عبد الحكم ومن نقل عنه من المؤرخين مثل المقريزى وأبو المحاسن والسيوطى أنه كان « بالاسكندرية أسقف للقبط يقال

له أبو ميامين(١) فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص الى مصر كتب الى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانا لعمرو . ثم يعود ابن عبد الحكم مرة ثانية فيذكر انه عندما فرغ عمرو بن العاص من فتح حصن بابليون وعقد الصلح مع المقوقس خرج الى الاسكندرية مع المسلمين حين أمكنهم الخروج ، « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد اصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم» .

فهذه الروايات تدل على أن القبط ساعدوا العرب منذ دخولهم الأراضي المصرية حتى أتموا فتح مصر ، وان كنا لا نستطيع أن نأخذ بكل ما جاء فيها اذ أن بطرك القبط بنيامين كان في ذلك الوقت مختفيا في الصعيد وليس في الاسكندرية . على أننا لا نستبعد أن أن يكون هناك فريق من المصريين قد وقف موقف الحياد لأنهم يعرفون أن ترحيبهم بالعرب معناه انتقالهم من تبعية الى تبعية أخرى ولم يكونوا في موقف يستطيعون معه طرد البيزنطيين والعرب في وقت واحد . وقد حارب فريق من الشعب المصرى ممن كان صنيعة للبيزنطيين في صفهم ، أو ربما حارب معهم منتظرا أن يكون النصر للبيزنطيين لا للعرب . فيذكر المقريزى في الخطط « أنه كان على تنيس رجل يقال له أبو ثور من العرب المتنصرين فلما فتحت دمياط سار اليها المسلمون فبرز اليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرين والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت الى وقوع أبي ثور في أيدى المسلمين وانهزام أصحابه » . لكن الروح السائدة من جانب المصريين بوجه عام كانت روح ترحيب بالعرب . وقابل العرب هذا الترحيب بالمثل . ويذكر الرواة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بقبط مصر في عدة أحاديث نذكر منها قوله : « ان الله عز وجل

---

(١) يقصد بالاسقف ابو ميامين البطرك بنيامين الذى كان معاصرا للفتح .

سيفتح عليكم بعدى مصرفاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمه » • والمعروف أن هاجر زوج ابراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل كانت من مصر لذلك كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة والسلام وأم ولده ابراهيم مصرية أيضا • ولسنا نعرض هنا لصحة هذا الحديث ولكنه يشهد على كل حال بموقف المسلمين من الاقباط فى فجر الاسلام وحين جمعت الأحاديث• ويذكر ساويرس أن سانوتيوس ـ الذى كان عميد الاقباط حين فتح العرب مصر والذى تولى ادارة شئون الكنيسة مدة اختفاء البطرك بنيامين ـ قابل عمرو بن العاص بعد استيلائه على الاسكندرية ونقل اليه قصة بطرك القبط بنيامين الذى اختفى هربا من اضطهاد الروم• وحين سمع عمرو بن العاص بقصة بنيامين كتب الى جميع أقاليم مصر كتابا يقول فيه « الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمنا مطمئنا ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته » (١) وعندما علم الأب بنيامين بذلك عاد الى الاسكندرية مسرورا بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاما أمضى منها عشر سنين فى أثناء حكم هرقل وثلاث سنوات فى أثناء الفتح العربى الى أن فتح العرب الاسكندرية •

وقد طرب أهل مصر جميعا لعودة راعيهم • ولما أبلغ سانتيوس عمرو بن العاص مقدم بنيامين أمر عمرو باحضاره اليه معززا مكرما، فلما مثل بين يدى عمرو أكرمه وبالغ فى حفاوته وأعطاه الحرية ليشرف على الكنائس ويرعى أحوال الأقباط •

ولا عجب اذ عم السرور والفرح أهل مصر جميعا• ولايستبعد أن يكون الأقباط قد وقفوا من وراء راعيهم يشدون أزر العرب ضد الروم حينما أغاروا على الاسكندرية سنة ٢٥ هـ • وقد ذكرنا سابقا

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ (الجزء الاول من مجموعة Patrologia Orientalis ـ باريس ١٩٠٧) •

أن أهل مصر ألحوا على عثمان بن عفان فى سنة ٢٥ هـ أن يرسل عمرو بن العاص اليهم لطرد الروم ولانه أعلم الناس بحربهم ومدافعتهم. وكتب المقريزى (١) انه كان بوادى هبيب (الذى يقع بين مريوط والفيوم ويعرف أيضا باسم وادي النطرون وهو الاسم الحالى له) مائة دير للنصارى وأنه خرج منه سبعون ألف راهب فلقبوا عمرو ابن العاص بالطرانة بالقرب من الاسكندرية وسألوه الأمان لأنفسهم وأديارهم فكتب لهم بذلك أمانا بقى عندهم .

لم يجد الأقباط اذن فى العرب عدوا لدينهم ولا لمذهبهم الدينى كما كان البيزنطيون .. بل كفل لهم العرب الحرية التامة فى اقامة شعائر دينهم واتباع مذهبهم الأورتودكسى . وكما أن روح الاسلام الحقة هى التى حفزت العرب الى اتباع سياسة التسامح الدينى نحو المصريين فقد كان أيضا للعوامل السياسية أكبر الأثر فى حملهم على ترك مقاليد الأمور فى يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين. أى أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة فى الدين كما أصبح لهم نصيب كبير فى ادارة بلادهم ربما لم يصلوا اليه قبل الفتح العربى . ولا شك أن الأقباط حلوا محل الروم الذين غادروا مصر والذين كانوا يشغلون كثيرا من الأعمال فيها . ونضيف الى ما ذكرناه سابقا أنه كان فى الحكومة المركزية بالفسطاط أو حلوان ـ التى اتخذها عبد العزيز بن مروان حاضرة له ـ كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ومصر السفلى . وقد أشار ساويرس أسقف الاشمونين الى الكاتبين الارتودكسيين أثناسيوس واسحق فى عهد عبد العزيز بن مروان (٢) . وكان هؤلاء الكتاب أو الرؤساء المسيحيون خاضعين للوالى بطبيعة الحال . وأشار ساويرس الى ظهور رئيسين من المسلمين فى بداية العصر

(١) الخطط ج ١ ص ٨١٦ .

(٢) سير الآباء البطاركة ص ١٢ (Patr. Orient., T. V Paris 1910)

العباسى (١) • والظاهر أن رؤساء المالية كانوا قبطا طوال العصر الأموى • ونلاحظ أيضا أنه فى نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطيا اسمه بطرس على أنه اعتنق الاسلام بعد ذلك (٢) • وكان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوفانسى (٣) •

ولم تكن سياسة التسامح نحو أهل الذمة وتقريبهم والاستعانة بهم فى ادارة مصر ميزة من ميزات العصر الأموى فى عهد الولاة وانما استمرت هذه السياسة فى العصر العباسى أيضا • والمعروف أن الخليفه المأمون العباسى حين قدم الى مصر فى أوائل سنة ٢١٧ هـ ولى على مدينة بورة وما حولها قبطيا من أهلها فبنى ذلك القبطى كنائس كثيرة بها (٤) •

ونلاحظ أن الفتح العربى ساعد أولا على احياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالة • فالدروس الدينية التى كانت تقرأ باليونانية وتشرح باللغة القبطية ، صارت لا تقرأ الا باللغة القبطية • كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التى كانت تسمى بالأسماء اليونانية أصبحت تعرف بأسمائها القبطية التى ترجع الى الأسماء المصرية القديمة • فمثلا نجد اسم اخميم بدلا من Panopolis بانوبوليس ، واهناسيا بدلا من هيراكليوبوليس Héracléopolis والأشمونين بدلا من هرموبوليس Hermopolis • على أن هذا كله كان بعثا لقديم لم يندثر تماما ، فان اللغة القبطية أو الأسماء المصرية كانت قد غلبت على أمرها حينا من الدهر ثم استعادت مكانتها بعد الفتح العربى •

والمعروف أن الأسماء العربية لكثير من بلدان القطر المصرى

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٨ •

(٢) المرجع السابق ص ٥٢

(٣) المرجع السابق ص ٥٢

(٤) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج٢ ص ٥٨ — ٥٩ (بيروت ١٩٠٩ م) •

الآن مأخوذة من الأسماء المصرية القديمة (١) كما أننا نستعمل في وقتنا الحالى كثيرا من الألفاظ العامية التى ترجع الى اللغة المصرية القديمة والى اللغة القبطية التى اشتقت منها (٢) .

وكان لوالى مصر حق الاشراف على انتخاب البطاركة بوصفه رئيس الحكومة وممثل الخليفة فى مصر . ويظهر من النصوص القديمة التى دونها المسيحيون فى مصر أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى قبل انتخاب البطرك كما أن البطرك والأساقفة كانوا يذهبون من الاسكندرية - التى كانت مقرا للبطركية القبطية - الى العاصمة لمقابلة والى مصر بعد الانتخاب للبطركية . ويظهر أن هذه كانت مجرد مسائل شكلية اذ لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا فى انتخاب أحد البطاركة ما دام الأساقفة يتبعون القوانين الكنسية . ويذكر ساويرس مؤرخ « سير الآباء البطاركة » أن عبد العزيز بن مروان أبطل انتخاب أحد البطاركة بعد ما علم أن البطرك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذى انتخب وتم للوالى ما أراد فعين اسحق بطركا بدلا من جرجة الذى كان قد انتخب (٣) .

وقد بنيت عدة كنائس فى ظل الحكم العربى وجددت كنائس أخرى ففى أيام البطرك أغاتون (٤١ - ٥٨ هـ = ٦٦١ - ٦٧٧ م) عمرت كنيسة أبى مقار (٤) ويذكر المؤرخون أن البطرك أغاتون بنى كنيسة القديس مرقص بالاسكندرية فى ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر ، وظلت هذه الكنيسة قائمة الى أيام السلطان العادل

---

(١) الدكتور سليم حسن : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ص ١٥٤ - ٢١٩ (المجمع المصرى للثقافة العلمية . الكتاب السنوى الثالث عشر - القاهرة ١٩٤٢ م) .

(٢) Dr. Georgy Sobhy : The Survival of Ancient Egypt. (Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, T. V, Le Caire 1938), pp. 65'-69.

(٣) انظر ساويرس : ص ٢٢ - ٢٤ T.V. ، ص ٤٨١ - ٤٨٢ T.X.

(٤) ساويرس : ص ٦ T.V.

أخى صلاح الأيوبى فى القرن السابع الهجرى • (١) كذلك بنيت أول كنيسة فى فسطاط مصر فى أثناء ولاية مسلمة بن مخلد عليها (٤٧ ــ ٦٢ هـ) • ويذكر سعيد بن بطريق أنه فى ولاية عبد العزيز ابن مروان على مصر بنيت كنيسة مار جرجس وكنيسة «أبو قير» فى داخل قصر الشمع (٢) ، أى فى مصر القديمة الآن •

ويذكر ساويرس أسقف الأشمونين أنه فى ولاية عبد العزيز ابن مروان على مصر جدد البطرك اسحق كنيسة القديس مرقص وبنى كنيسة بحلوان • كذلك يذكر ساويرس أن كنائس أخرى بنيت فى حلوان فى ولاية عبد العزيز بن مروان وقد عهد عبد العزيز بعمارتها الى أغريغوريس أسقف القيس (٣) •

وهكذا نرى أن سياسة عبد العزيز بن مروان نحو الأقباط وازاء بناء الكنائس كانت استمرارا لسياسة العرب منذ الفتح وقاعدة لما اتبع بعد ولايته طوال عصر الولاة • فهى سياسة لا تنطوى على تفرقة بين العرب وأهل البلاد أو تعصب ضد المسيحيين وانما كانت سياسة عطف وتسامح وتقدير لأهل البلاد • وفى زمن العباسيين فى عصر الولاة اذن موسى بن عيسى فى ولايته الأولى على مصر (١٧١ ــ ١٧٢ هـ) للنصارى ببناء الكنائس التى هدمها الوالى الذى سبقه ، وفى ذلك يقول الكندى : « فبنيت كلها بمشورة الليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالا : هو من عمارة البلاد ، واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة

---

(١) ابن العميد (المعروف بالمكين : تاريخ المسلمين ص ٥٠ (لدن ١٢٦٥م) والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٩٢ •

(٢) سعيد بن بطريق (المعروف باسم أوتيخا) : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢ ص ٤١ •

(٣) فى معجم البلدان لياقوت الحموى ج ٤ ص ٢١٥ : القيس كانت بمصر وقد خربت الآن وكانت فى غربى النيل بعد الجيزة •

والتابعين » (١) وهذا النص يبين موقف المسلمين فى مصر من المسيحيين ومدى تسامحهم وسعة أفقهم كما يبين لنا رأى اثنين من الفقهاء المسلمين ـ وهما الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ـ ازاء بناء الكنائس وتعميرها ٠

ومما سبق نرى مدى الحرية الدينية التى تمتع بها الأقباط فى ظل الحكم العربى بل ان الأقباط ظلوا يحتفلون بأعيادهم الدينية التى يعددها لنا المقريزى فى خططه ٠ ولم نعرف أن العرب فعلوا شيئا يحد من حرية الاقباط فى احتفالاتهم الدينية بتلك الأعياد ٠ ولعل عبد العزيز بن مروان أو ولاة مصر فى ذلك العصر شاركوا الآقباط فى الاحتفال بوفاء النيل كل عام ٠ ويذكر ابن عبد الحكم (٢) ومن نقل عنه من المؤرخين أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها اليه فى شهر بؤونة فقالوا له : « أيها الأمير ان لنيلنا هذا سنة لايجرى الا بها فقال لهم : وما ذلك ؟ قالوا : انه اذا كان لاثنتى عشرة ليلةتخلو من هذاالشهر عمدنا الى جاريةبكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل ٠ فقال لهم عمرو : ان هذا لا يكون فى الاسلام وان الاسلام يهدم ما قبله ٠ فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء ٠ فلما رأى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر : قد أصبت ! ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل اذا أتاك كتابى ٠ فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل أهل مصر : أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » فألقى عمرو البطاقة فى النيل

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٣٢ ٠

(٢) فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٠ ـ ١٥١ ٠

قبل يوم الصليب (١) بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج لانه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا في ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر ٠ » وقد انفرد المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم بذكر الرواية السابقة ، ثم نقل عنه المؤرخون ٠ على أنه لا يعقل أن تبقى المسيحية على مثل هذه العادة ان كانت قد وجدت في عهد الفراعنه ، وقد ثبت أيضا أن الفراعنة لم يتبعوا هذه العادة وهى القاء فتاة كاملة الزينة على قيد الحياة في النيل ٠ ومسألة « عروس النيل » معروفه منذ القدم ، ولكن المؤرخين المسلمين القدماء اعتبروها حقيقة لا مجازا ٠ والحق أن المصريين في العصر القديم كانوا يزوجون تماثيل النيل بتماثيل عروسة فالمسألة كانت مسألة رمزية لا حقيقية اذ كان الشعب المصرى في كل العصور يرى من الواجب عليه أن يقدم هدية ثمينة الى نهر النيل الذى يجلب لبلاده الخيرات الواسعة ٠

وكان المسلمون في عصر الولاة يشتركون مع الأقباط في الصلاة من أجل النيل اذا ما أتى النيل ناقصا في فيضانه بحيث تصبح مصر في خطر من قلة المياه ، فكان المسلمون يصلون صلاة الاستسقاء وكذلك كان الأقباط يصلون من أجله ٠

وقد انتصر العرب للأقباط الاورتودكس على الكنيسة الملكانية ، فاسترد الاورتودكس أو أخذوا عددا من الكنائس والأديرة التى كانت في يد أعدائهم الملكانيين كما انتهزوا فرصة

---

(١) عيد الصليب كان يحتفل به الاقباط فى يوم ١٧ من توت (خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٦) ٠ ويذكر المستشرق الفرنسى الاستاذ فيت Wiet ان المسيحيين جعلوا للاحتفال بالنيل معنى دينيا فكانت الكنيسة تحتفل فى يوم ١٧ من توت الذى كان يوافق ١٤ من سبتمبر قبل الاصلاح الجريجورى فى التقويم بذكرى اعلاء الصليب المقدس ٠. Wiet : Hist. de la Nation Egypt. T. IV, pp. 177-178.

حسن علاقتهم بالمسلمين لكى يجذبوا الى مذهبهم كثيرا من الملكانيين بل حدث فى عهد قرة بن شريك أن فرض على الملكانيين جزية مضاعفة • أى أنه أصبح مضيقا على الملكانيين كما ضيقوا هم على الأقباط قبل الفتح ولم يتمتع الملكانيون ببعض الحرية الا فى فترات معينة ولظروف خاصة طارئة •

ولم ينكر أحد من المسيحيين التسامح الدينى الذى جرى عليه العرب فى معاملتهم لأهل الذمة • وليس أدل على ذلك مما كتبه أحد الأساقفة النسطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عاما اذ قال : « ان العرب الذين وهب لهم الله السيادة فى أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحى « قط » بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقديسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا » (١) •

وهكذا نرى أن عبد العزيز بن مروان والعرب بصفة عامة تركوا القبط أحرارا فى دينهم وفى ثقافتهم وجعلوا لهم نصيبا وافرا فى ادارة بلادهم • ولعل أخلاق العرب الكريمة المتسامحة وأفقهم الواسع هو الذى جعل أقباط مصر منذ الفتح يقبلون على العرب وعلى دينهم ولغتهم •

وأظهر الاقباط وعامة المسيحيين فى مناسبات عدة ارتياحهم لحكومة العرب واعترافا بالجميل • ولم يقتصر هذا الشعور على السنوات الأولى بعد الفتح وانما نقرأ فى مناسبات مختلفة مدى تقدير الأقباط والمسيحيين عامة للعرب ومدى حبهم لهم • وقيل فى مناسبة زيارة الخليفة المأمون العباسى لمصر فى أوائل القرن الثالث الهجرى انه لما سار فى قرى مصر كان يقيم فى القرية يوما وليلة فمر بقرية يقال لها « طاء النمل » ولم يدخلها لصغرها فلما تجاوزها خرجت اليه عجوز اسمها مارية القبطية وهى تصيح ، فظنها المأمون

(1) Wiet : Précis de l'hist . d'Egypte, T. II, p. 131.

مستغيثة متظلمة فوقف لها فطلبت منه السيدة أن يشرفها بالزيارة في ضيعتها فأجابها المأمون الى طلبها وكان معه أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أكثم والقاضى أحمد بن أبى داود عدا قواده وعساكره فأكرمتهم اكراما كثيرا « ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا ، فلما أصبح وقد عزم على الرحيل جاءته ومعها عشر وصيفات مع كل وصيفة طبق وفى كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها باعادته. فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب !! ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك ! فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقرنا . فقال : ان فى بعض ما صنعت الكفاية ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين ! هذا ، وأشارت الى الذهب ، من هذا ، وأشارت الى الطينة التى تناولتها من الأرض ، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا شىء كثير . فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدان بغير خراج . وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها » (١) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨١ .

٢ ـ بوادر التعريب :

بعد أن ساد العرب البلاد المختلفة حربيا وسياسيا لم يكن من المعقول أن يظل العرب فى واد وأهل البلاد المفتوحة فى واد آخر ، ولم يكن من الطبيعى أن تظل لغة العرب وثقافتهم أجنبية غريبة على أهل البلاد المفتوحة وأن تكون لغة أهل البلاد المفتوحة غريبة على العرب وفى مصر ظهرت المشكلة واضحة حين أراد أميرها عبد العزيز بن مروان أن يعرف حقيقة العلاقات التى كانت بين بطركية مصر وبين الحبشة والنوبة ، ونراه يهتم اهتماما بالغا بتعرف تلك العلاقات على أثر ماكتبه البطرك الى ملكى الحبشة والنوبة ليزيل سوء التفاهم الذى كان بينهما (١) ويذكر ساويرس أن الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان كان يلى كثيرا من أمور مصر فى ولاية أبيه وأنه كان يصحب شماسا اسمه بنيامين كثيرا ما كان يطلعه على أسرار النصارى حتى انه ترجم له الانجيل باللغة العربية وعدة كتب دينية أخرى وذلك ليعرف المسلمون ·· اذا كان فى هذه الكتب ما يمس الدين الاسلامى بسوء (٢) ونحن نعتقد أن الترجمة من القبطية الى العربية لم يكن هدفها فحسب معرفة ما يمس الدين الاسلامى بسوء على حسب رأى ساويرس ، وانما كانت تهدف الى التعرف على ثقافة المصريين وحضارتهم وطرق تفكيرهم · وفعلا بدأت فى خلافة عبد الملك بن مروان حركة « التنظيم والتعديل » على حد تعبير المؤرخين العرب · فعمد عبد الملك الى صبغ الدولة

---

(١) ساويرس ص ٢٤ ـ ٢٥ (T. V.)
(٢) ساويرس ص ٥٠ ـ ٥١ (T. V.)

بصبغة عربية والى الاعتماد على الموظفين من العرب أو الذين يتقنون العربية من أهل البلاد المفتوحة . وكما أمر عبد الملك فى سنة ٦٧ هـ بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التى كان يتداولها الناس حتى زمنه ، نراه يتجه الى تعريب لغة الادارة والحسابات .

وكانت دواوين الخراج فى البلاد المفتوحة حتى مجىء عبد الملك ابن مروان تكتب بلغات البلاد المحلية فكانت تكتب بالفارسية فى المشرق ، وباليونانية والسريانية فى الشام ، وباليونانية والقبطية فى مصر . وكان كل اعتماد العرب بطبيعة الحال على أهل البلاد المفتوحة أو على الروم الذين بقوا فى مصر والشام . وكان ذلك طبيعيا لقلة خبرة العرب بأمور الادارة ولأن الكتابة فن خاص . ولكن توسع خبرة العرب واستقرار الدولة ، وتطورها ، واتجاهها نحو تقوية الحكم المركزى وذلك بجمع السلطان فى يد الحاكم ، كل ذلك أدى الى وجوب التعديل فى الدواوين المحلية سواء أكان من ناحية اللغة أم من ناحية الموظفين الذين يعملون فى هذه الدواوين. وكان هذا تأكيد لسيادة الدولة العربية وسيادة اللغة العربية التى سار عليها بنو أمية . ومع ذلك فاننا نرى المؤرخين المسلمين مثل الجهشيارى يوردون أسبابا تافهة ويدعون أنها هى التى أدت الى التعريب فيذكرون قصصا عن تثاقل أحد الكتبة ، أوخصام بين كاتبين جعلوها سببا للتعريب ، فيقول الجهشيارى : « وكان يتقلد ديوان الشام بالرومية لعبد الملك ولمن تقدمه ، سرجون بن منصور النصرانى ، فأمره عبد الملك يوما بشىء ، فتثاقل عنه وتوانى فيه فعاد لطلبه ، وحثه فيه ، فرأى منه تفريطا وتقصيرا فقال عبد الملك لأبى ثابت سليمان بن سعد الخشنى — وكان يتقلد له ديوان الرسائل — أما ترى ادلال سرجون علينا ؟ وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا اليه والى صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت الحساب الى العربية . قال : فافعل . فحوله . فرد اليه

عبد الملك جميع دواوين الشام » (١) ٠

وكانت « عملية » التعريب « عملية » طويلة بدأها عبد الملك فى أخريات حياته منذ سنة ٨١ هـ ، وكان الحجاج بن يوسف صاحب اليد الطولى فى الأخذ بهذا التعريب فى العراق وما يتبعها شرقا ٠ أما فى مصر فقد بدأ عبد العزيز بن مروان حركة التعريب بترجمة الانجيل وبعض الكتب ، والمكاتبات بين البطرك وبين الحبشة والنوبة ٠ ويحتمل أن التفكير فى جعل اللغة العربية ، اللغة الرسمية فى مصر يرجع الى ولاية عبد العزيز بن مروان ، لكن تعريب الدواوين فى مصر لم يبدأ الا بعد وفاة عبد العزيز بن مروان فبدأ فى سنة ٨٧ هـ فى خلافة الوليد بن عبد الملك وفى ولاية عبد الله ابن عبد الملك على مصر ٠ وتعريب الدواوين بدأ فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ ـ ٧٠٦) لكن الوثائق البردية تدل على أن الحكومة ظلت مدة طويلة تستخدم العربية واليونانية على حين كانت السلطات المحلية فى الريف تكتب كثيرا باللغة القبطية ٠ ونجد وثائق ذات لغتين عربية ويونانية الى القرن الثانى الهجرى بل انه وجد « ايصال » بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦ هـ عليه كتابة قبطية ٠

والواقع أن تعريب الدواوين فى الدولة الاسلامية كلها كان أول « عملية » ترجمة منظمة وجبارة ٠ ولم تتم هذه « العملية » الا حين عربت دواوين خراسان فى أواخر الدولة الأموية فى ولاية نصر بن سيار حوالى سنة ١٢٤ هـ ٠ وأدى التعريب الى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية الى اللغة العربية ٠ وأصبحت الدولة العربية عربية بمعنى أكمل فلم يعد للدولة السيادة السياسية والحربية فحسب وانما أصبح لها السيادة اللغوية فانتشرت اللغة العربية فى الأقطار المفتوحة ثم أصبحت لغة الادارة ولغة الثقافة والفكر ولغة التخاطب فضلا على أنها لغة السياسة والدين ٠

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٤٠ (باعتناء مصطفى السقا والابيارى والشلبى ، القاهرة ١٩٢٨ م) ٠

٣ ـ القبائل العربية فى مصر :

امتاز العرب على غيرهم ممن فتحوا مصر فى مختلف العصور بأنهم اندمجوا فى الشعب المصرى وامتزجوا به امتزاجا قويا ، وكان لهذا الاختلاط أكبر الأثر فى تغلب الثقافة العربية الاسلامية فى وادى النيل . وشجع الخلفاء وفود القبائل العربية الى مصر فزاد المسلمون فى مصر لتزايد العرب فيها باستمرار بمن كان يرد من القبائل بعد الفتح وبتحول القبط الى الدين الاسلامى . ويمكننا أن نقدر الجيش العربى الذى استقر فى مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفا من الرجال . أما عدد سكان مصر حينئذ فقد ذكر ابن عبد الحكم أنه كان هناك أكثر من ستة ملايين رجل ممن تجب عليهم الجزية ـ أى باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال ـ واذا فرضنا أن هؤلاء الذين وجبت عليهم الجزية يكونون ثلث السكان رأينا أنه كان بمصر اذ ذاك نحو ١٨ مليون نسمة . ولكننا نرى أن هذا الرقم مبالغ فيه ، فان سكان مصر فى العهد البيزنطى أى قبل الفتح كانوا ٧ ملايين نسمة باستثناء الاسكندرية التى كان يبلغ سكانها نحو ٣٠٠ر٠٠٠ .. والذى يهمنا أن العرب كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل البلاد .

وكان معظم العرب الذين استقروا فى مصر بعد الفتح يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الاسكندرية . ومر بنا أن الخليفة عمر بن الخطاب حرم عليهم الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب . ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية ولم يكن لهم تأثير يذكر على الأقباط سواء كان

هذا التأثير من ناحية انتشار الدين الاسلامى أو اللغـــة العربية وكان اختـــلاط القبائل العربيـــة بأهل مصر عن طريق التزاوج أو الولاء (١) نادرا فى أول الأمر ٠

على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى فجر الاسلام كانوا يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية العهد الأموى ، أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب كالخراســانيين والأتراك فى العصر العباسى ٠ فكانت القبائل العربية تفد باستمرار الى مصر اما مع الولاة أو يبعث بهم الخلفاء لتعزيز الجند واستيطان البلاد ، ولذا نرى أن عدد الجند فى مصر أيام معاوية بن أبى سفيان بلغ أربعين ألفا٠ وكانت الأغلبية فى مصر من عرب اليمنية أو عرب الجنوب ، وكانت قيس أو عرب الشمال عامة أقلية بمصر ٠ وحين ولى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر فى سنة ٦٥ هـ قال عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين ٠ كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ » ٠

وفى خلافة هشام بن عبد الملك حدث تطور فى تاريخ القبائل العربية فى مصر ٠ ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر وفد على الخليفة فى سنة ١٠٩ هـ وسأله أن ينقل الى مصر بيوتا من قيس أو عرب الشمال وكانوا أقلية بها ، فأذن له الخليفة بذلك ٠ وبعث ابن الحبحاب الى البادية فقدمت عليه مئات البيوت من القيسية فأنزلهم ببلبيس فى شرقى الدلتا وأمرهم بالزرع ووزع عليهم الصدقة من العشور فاشتروا ابلا وخيلا وكانوا يحملون الطعام الى القلزم (السويس الحالية) ٠ ولما بلغ ذلك عامة قومهم تشجعوا على المجىء الى مصر وحـــين توفى هشام بن عبـــد الملك كان ببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ٠

---

(١) المولى : الملك والسيد ٠ العبد ٠ الناصر ٠ الجار ٠ الحليف ٠ المعتق ٠ الصهر ٠ القريب ٠ التابع ٠

والمقصود باختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق الولاء ، اختلاطهم عن طريق العتق والجوار والمصاهرة ٠

أى أن الخلافة فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) تخلت عن السياسة التى اتبعتها منذ الفتح وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى وعن الاشتغال بالزراعة • وساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالمصريين • وكان لهذا الاختلاط أثره فى انتشار الاسلام بمصر نتيجة للزاوج أو للموالاة بينهم وبين المصريين • ولذا يقول المقريزى :

« ولم ينتشر الاسلام فى قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى ، فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » (١) •

وأخذت القبائل العربية تفد الى مصر وتستقر فى القرى وتصاهر أهل البلاد وتم اندماج العرب بالمصريين زمن الخليفة المعتصم العباسى اذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان وليا للعهد تنطوى على الاعتماد على الأتراك وعدم الثقة بالعرب أو بالفرس • فلما بويع بالخلافة أرسل الى والى مصر كيدر نصر بن عبد الله (٢١٦ ـ ٢١٩ هـ) يأمره باسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم فتم ذلك • ويظهر أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد ، بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف • فعندما قطع كيدر العطاء ثار يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام وقال : « هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا » • ولكن لم يتبعه أكثر من خمسمائة رجل ، ومات كيدر فى ربيع الآخر سنة ٢١٩ هـ فخرج مظفر بن كيدر والى مصر من بعده الى يحيى ابن الوزير وقاتله فى بحيرة تنيس فأسر يحيى بن الوزير وتفرق عنه أصحابه فى جمادى الأولى سنة ٢١٩ هـ •

ونلاحظ أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٦١ •

قرنين من الزمان ، فاننا نرى فى معظم شواهد القبور التى كشفت حديثا فى مقابر أسوان والفسطاط أن اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة ، ولكن فى خلال القرن الثـالث الهجرى نجد اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى حل محل اسم القبيلة فيكتب فلان الكوفى أو المصرى أو الادفوى الخ ٠٠

وهذا يدل على أنه فى القرن الثالث الهجرى أصبح العرب فى مصر لا يتميزون عن أهل البلاد ٠ ولم يكن هناك بعد قرار المعتصم ما يحسد عليه العرب من نسل الفاتحين ٠ اذ أنه بعد ما فقـد العرب مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية ، اضطروا الى الانتشار فى الريف والاختـلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشـتغال بالزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك من الأعمـال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها ٠ وكان هذا الاختلاط مما ساعد على انتشار الاسلام بمصر وعلى تعريبها ٠

ولا ريب فى أن فريقا من الأقباط أقبلوا على اعتنـاق الدين الاسلامى عن ايمان واقتناع منـذ الفتح العربى ٠ ولعل فريقـا استهواه تسامح حـكومة العرب فأقبل على دينهم بعـدما ضاق بالخلافات الدينية التى كانت تمزق العالم المسيحى فى ذلك الوقت ٠ كذلك اعتنق بعض الأقباط الدين الاسلامى منذ البـداية حبا فى الانتماء الى دين الطبقة الحاكمة والمغلوب مولع أبدا بتقليد الغـالب على حـد قول ابن خلدون ٠ ولعـل من أهم الأمـور التى انفرد ساويرس ببيانها أو توضيحها بحكم تأريخه للبطاركة وللكنيسـة وللأقباط ، ما كتبه عن مركز المسيحيين فى مصر الاسـلامية من الناحية الاجتمـاعية ، ومدى تمتعهم بالحرية الدينية ، وقيـامهم بشعائرهم ، والاحتفال بأعيادهم ، وبناء أو تجـديد كنائسهم ، وعلاقة المسـيحيين باخوانهم المسـلمين فى مصر وفى غيرها من البلدان ، وموقفهم من الحـكومات الاسـلامية فى مصر العربية الاسلامية ٠ كذلك أفاض ساويرس فى حديثه عن انتشار الاسلام

فى مصر ، ويتضح مما كتبه أن العامل المالى كان من أهم العوامل التى حولت أغلبية الأقباط الى الدين الاسلامى فيبين ساويرس أن كثيرا من الأقباط أسلموا ليتخلصوا من الجزية والضرائب المفروضة عليهم ولو أنه يذكر فى مناسبات مختلفة أن التشريعات المالية الخاصة بالأقباط أو الأساقفة أو الرهبان أو البطرك كانت تصدر بتحريض من الأقباط ورجال الدين المسيحيين أنفسهم • ولم يكن ساويرس ليغفل الكلام على أى اضطهاد يصيب الأقباط لتحويلهم الى الدين الاسلامى بالقوة اذا كان قد وجد هذا الاضطهاد • ويتضح من كتابات ساويرس أن الرهبان كانوا يبغضون الحكومة الاسلامية لأنهم كانوا يفلتون فى البداية من دفع الجزية الى أن بدأ والى مصر عبد العزيز بن مروان سنة فرض الجزية عليهم كما مر بنا • ومر بنا أن العرب تركوا معظم وظائف الدولة فى أيدى الذميين كذلك كان حكام الكورات المختلفة منهم كما كان جباة الضرائب من أهل الذمة أيضا •

وقد تبع انتشار الاسلام فى مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضا فأصبحت لغة الكتابة ولغة التخاطب • على أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الاسلامى فيها • وبالرغم من أن الدواوين عربت رسميا فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ ـ ٧٠٦ م) فان وثائق البردى تدل ـ كما ذكرنا سابقا ـ على أن الحكومة كانت تستخدم العربية واليونانية الى القرن الثانى الهجرى ، على حين كانت السلطات المحلية فى الريف تكتب كثيرا بالقبطية •

وحين قدم الخليفة المأمون الى مصر سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) وحين أصبح للدين الاسلامى الغلبة فى مصر ، كانت اللغة القبطية لا تزال لغة التخاطب بين المصريين وقد ذكر المقريزى فى كلامه عن المأمون حين قدم الى مصر « وكان لا يمشى أبدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس » (١) •

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨١ •

ولم يبدأ الأقباط بترك لغتهم القبطية الا فى أواخر القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ، فنرى البطرك الملكانى سعيد بن بطريق يكتب كتابه فى التاريخ باللغة العربية وذلك فى القرن الرابع الهجرى . وكذلك نرى ساويرس أسقف الاشمونين يؤرخ للبطاركة فى أواخر القرن الرابع الهجرى باللغة العربية فضلا على أنه قام بترجمة الوثائق اليونانية والقبطية الى اللغة العربية مما يدلنا على أن اللغة العربية أصبحت لغة الكلام ولغة التخاطب بين المصريين عامة . وقد بقيت اللغة القبطية بعد ذلك محصورة فى نطاق ضيق وما زالت تدرس الى اليوم باعتبار أنها لغة قديمة . وهناك بعض الألفاظ العامية المصرية التى نستعملها للآن ترجع الى اللغة القبطية .

ولا ريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين ، فان الشعوب المختلفة التى توالت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين . وهذه ظاهرة تستحق امعان النظر ، لأن تنازل شعب عريق فى المدنية كالشعب المصرى ، عن لغته واتخاذه لغة شعب لا يوازيه فى الحضارة أمر غير عادى . وقد نقول : ان الذين اعتنقوا الدين الاسلامى تعلموا اللغة العربية لغة القرآن ، وقد نذكر أن المصريين اضطروا الى تعلم اللغة العربية لأنها أصبحت اللغة الرسمية للدواوين منذ سنة ٨٧ هـ ، وقد نقول : ان اتصال العرب فى الفسطاط والجيزة والاسكندرية بالأهلين ، واتصال كبار الموظفين العرب وأعوانهم فى الريف بأهله كان له أثر فى التعريب . لكن أهم عوامل تعريب مصر ـ فى رأينا ـ كان نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبى الشريط الخصب بوادى النيل وفي الدلتا مما أدى الى اختلاطهم بالقبط اختلاطا كبيرا ، ومن ثم الى انتشار اللغة العربية فى مصر والى تعريب البلاد . فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى ، واللغة التركية فى العهد العثمانى لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصرى ، فكان اليونانيون ينزلون المدن

ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقـــافى لم يذهب للريف الا قليلا فلم تنتشر اللغة اليونانية الا فى بيئات خاصـــة وعاش اليونانيون في مصر كأنهم جزر يونانية في وسط المحيط المصرى الواسع • وكذلك عاش الأتراك فى بيئات خاصـــة فى مصر ولم يســتطيعوا جعل لغتهم لغة البــلاد الأصلية بالرغم من أن الحـكم التركى دام عدة قرون • ولكن حدث فى عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين ، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك الفلاح المصرى القديم لغته برغم تمسكه بالقـديم وحرصه عليه •

ولم يقف الأمر عند انتشار الدين الاسلامى واللغة العربية، بل اننا نجد مصر فى أواخر عصر الولاة تشارك فى الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ آخر القرن الثـانى الهجرى • وكان جامع عمرو بن العاص هو قلب هذه الحركة النابض كما هى الحال بالنسبة للأزهر الشريف الآن • وقد أنجبت مصر منذ أواخر القرن الثـانى وأوائل القرن الثـــالث الهجرى رجال أدب ودين ومؤرخين أنتجوا بالعربية كما لو كانوا أبناءها ، وكان علماء مصر أساتذة لعلماء افريقية والأندلس بوجه خاص •

وكانت مصر احدى الأمم القليلة التى تخلت نهائيا عن لغتها القومية ورمت بنفسها فى أحضان الاسلام والمدنية العربية • وهى فى ذلك تخالف ايران والهند اللتين لم يقض فتح العرب على لغتهما القومية ، ولم يقض على العقائد الدينية التى وجدت فيهما قبل الفتح قضاء تاما • كذلك لم يمنع اعتناق الأتراك للدين الاســـلامى من الاحتفـــاظ بلغتهم القومية • بل نرى الاندلس التى كانت تتمتع بحضارة اسلامية مزدهرة فى العصور الوسطى بعد فتح العرب لها ، تغلب على أمرها فى أواخر العصور الوســـطى وتعود ثانية دولة مسيحية الدين أجنبية اللغة • وبينمـــا نرى الشـــاعر الوطنى « الفردوسى » فى ايران ينظم الشاهنامة باللغة الايرانية الحديثة فى

القرن الرابع الهجرى ، نجد رجال الدين الأقباط فى مصر يكتبون فى القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ويخاطبون أبنـاء دينهم بالعربية بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم .

ونجد مصر فى الفترة ما بين الفتح العربى والفتح العثمانى لا تصبح دولة اسلامية فحسب بل تتزعم العالم الاسلامى كله ، فبعد أن كانت مصر خاضعة للخلافة فى عهد الولاة نجدها تصبح مركزا للخلافة الفاطمية (٣٦٢ ـ ٥٦٧ هـ) التى نافست الخلافة العباسية فى وقت ما ، ثم نجد مصر تصبح مركزا للخلافة العباسية بعـد زوالها من بغداد على أيدى المغول فى سنة ٦٥٦ هـ وانتقالها الى مصر فى عهد الظاهر بيبرس سـنة ٦٦١ هـ ، تلك الخلافة التى ظلت قائمة بها الى الفتح العثمانى سنة ٩٢٣ هـ ، أى أن مصر فى هذه المرة بعد فتح العـرب لها خرجت فخورة بحضارتها الاسـلامية وبزعامتها للعـالم الاسـلامى أجمع . وحسبنا دليلا على علو مركز مصر فى العالم الاسلامى منذ العصـور الوسطى أن نذكر قول ابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى : « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العـالم وايوان الاسـلام ، وينبوع العلم والصنائع » (١) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة (فصل فى ان حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم) .

الفصل التاسع

الآثار والفنون

١ ـ طراز أموى

٢ ـ الفسطاط :

٣ ـ حلوان

٤ ـ انشاءات واصلاحات

١ ـ طراز أموى :

كان العرب عند ظهور الاسلام فى دور من أدوار حيـــاتهم لا يمكن أن يترك للعناية بالفنون مكانة تستحق الذكر ٠٠ فقد كان امامهم مهمات أخرى جليلة هى نصرة الدين الجديد ونشره وتأسيس امبراطوريتهم الواسعة الأرجاء ٠ بل ان العـارفين بطبيعة الجماعة الاسلامية فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام وفى خلافة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب يعتقدون أنه لو سار العالم الاسلامى على سنة ذلك العصر لما قامت فى الاسلام المساجد الشاهقة ، والعمائر الضخمة ، والقصور الفاخرة ، ولما صنع المسلمون الثياب الغالية والآنية النفسية وغير ذلك مما يخالف «بساطة» الدين وحياة الجهاد والتقشف التى كانت سـائدة فى ذلك العصر ٠ وليس هذا عيبا بأى حال من الأحوال لأن الأمم تمر فى حياتها بأطوار يحتاج كل منها الى اتجاهات خاصة وأهداف معينة ، ولا ريب فى أن المسلمين فى عصر النبى عليه الصـلاة والسـلام ، وعصر الخلفاء الراشدين كانت تشغلهم عن الفنون والعمـــارة أمور فى الدرجة الأولى من الخطورة تتعلق بكيان الأمة ، وسـلامة الجماعة العربية الناشئة ، ونشر الدين الاسلامى ٠

وهكذا نستطيع القول بأن العرب كان لهم الفضل فى قيام الامبراطورية العربية ونشر الدين الاســـلامى ، ولكن نصيبهم فى بداية الأمر فيما يتعلق بالفنون كان محدودا ، كمـا كانت أبنيتهم « بسيطة » جدا ٠ ويدلنا على « بساطة » البناء فى ذلك العهد الأول للدولة العربية الناشـــئة ، أن خارجة بن حذافة بنى غرفة فى

الفسطاط في مصر (أى دارا علوية أو بناء مرتفعا) فبلغ ذلك عمر ابن الخطاب فكتب الى عمرو بن العاص: « سلام. أما بعد فانه بلغنى ان خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ان شاء الله والسلام » . (١)

كذلك كان جامع عمرو بن العاص فى بداية تشييده غاية فى « البساطة » ، فكان طوله خمسين ذراعا فى بادىء الأمر وعرضه ثلاثين ذراعا ، ولم يكن له محراب مجوف كما كان سقفه «واطئا» جدا ولا صحن له . ويقال ان عمرو بن العاص اتخذ منبرا فيه فكتب اليه عمر بن الخطاب يأمره بكسره لأنه لا يرضى أن يكون عمرو قائما والمسلمون جلوس تحت عقبه ، فكسره عمرو (٢) .

ومثل تلك « البساطة » كانت فى البصرة والكوفة وفى مسجديهما . على أن العرب مالبثوا أن تخطوا عهد « البساطة » وتوسعوا فى البناء وانتجوا فى الفنون ، ولا شك أن السبب فى ذلك يرجع الى اتساع الدولة العربية وتدفق الأموال اليها ، واختلاط العرب بالامم الأخرى وتأثرهم بما شاهدوه من مظاهر الحضارة فى مصر والشام وايران ، ورغبتهم فى أن يكون للاسلام مكانته ، وللدولة العربية منزلتها ، وفى ألا يظهر أمير المؤمنين كشيخ من شيوخ القبائل .

ونعرف من المصادر التاريخية أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر فى خلافة عثمان بن عفان بنى قصره الكبير الذى عرف باسم قصر الجن ، ولفخامة ذلك القصر اذ ذاك قال له المقداد : ان كان من مال الله فقد أسرفت وان كان من مالك فقد أفسدت ،

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ،
Creswell : Coptic Influences on Early Muslim Architecture (Extrait Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, T. V, 1939, Le Caire), p. 29.

فقال عبد الله بن سعد : لولا أن يقول قائل أفسد مرتين لهدمتها(١). كذلك بنى عبد الله بن سعد الأسواق والحمامات فى الفسطاط .

وازدادت عناية العرب بالبناء والفنون أيام خلافة الامويين .

وكان الطراز الأموى الذى ينسب اليهم ، أو الطرز أو المدارس فى الفن الاسلامى . وازدهر هذا الطراز فى القرنين الأول والثانى بعد الهجرة . وكان هذا الطراز « طرازا امبراطوريا، شمل ديار الاسلام كلها ، كما كان طراز انتقال من الفنون والعمارة المسيحية فى الشرق الادنى الى الطراز العباسى . كذلك لم يخل هذا الطراز من التأثر بالأساليب الفنية الساسانية التى كانت مزدهرة فى الشرق الأدنى عند ظهور الاسلام » (٢) ذلك أن الأمويين عاشوا فى الشام حيث ازدهرت من قبلهم مدارس من الفنون الهلنتية والمسيحية الشرقية ، والتى تأثرت ببعض الأساليب الفنية الساسانية بحكم الجوار . وطبيعى أن العرب فى الشام تأثروا بالعمائر والفنون المسيحية التى شاهدوها ، وبدءوا يفكرون فى تشييد مساجد توازى فى العظمة كنائس المسيحيين ، ويتخذون من الطرف والتحف الفنية ما يتفق وعظمة ملكهم الجديد . وكان جل اعتماد العرب فى البداية على الصناع والفنيين من السوريين والأقباط والروم . وقد مكن نظام الليتورجيا الحكومة الأموية من تنفيذ ماتريده من الأعمال الفنية الجليلة ، اذ كانت أقاليم الدولة العربية تلتزم بتقديم الصناع والفنيين ومواد الصناعة الى الحكومة . وقد نقل القواد والولاة أصول هذا الطراز الأموى من الشام الى سائر الأقاليم العربية(٣) وعنى الأمويون بتجديد بعض المساجد التى أنشئت فى عهد الخلفاء الراشدين مثل جامع البصرة وجامع

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٠ .

(٢) دكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ١٢ ــ ١٣ (القاهرة ١٩٤٨) .

(٣) دكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣٢ ــ ٣٣ .

الكوفة وجامع عمرو بن العاص ، لكن ازدهار فن العمارة ظهر على يدهم فيما شيدوه من مساجد مثل المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى بيت المقدس ، والجامع الأموى فى دمشق (١) هذا بالاضافة الى ما خلفه الأمويون من قصور أو ما رواه المؤرخون عن العمارة والفنون الأموية ٠

وبعد فتح العرب لمصر قامت فيها صناعة اسلامية مصرية وفن اسلامى مصرى كان للمصريين اليد الكبرى فيه ، وان كان العرب قد أفلحوا فى طبعه بطابع دينهم بحيث بدأت تتميز الفنون والصناعات المصرية عما كان موجودا فى مصر قبل الفتح ٠ وشارك المصريون أيضا فى كثير من عمارة مختلف أنحاء الدولة الاسلامية ، فنعرف من أوراق بردى كوم أشقاو أن قرة بن شريك أرسل عمالا مصريين للعمل بالجامع الأموى فى دمشق ، وأرسل آخرين للعمل فى جامع بيت المقدس، وأرسل غيرهم للعمل فى قصر أمير المؤمنين، كذلك شارك المصريون فى عمارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة المنورة ، وكانت كتب والى مصر قرة بن شريك تحدد النفقة على الفعلة المصريين ، وعلى مهرة العمال منهم (٢) وكان نقل مهرة الصناع والفنانين من اقليم الى آخر فى ديار الاسلام أمرا شائعا ، وخاصة أن ديار الاسلام كانت تعتبر وحدة واحدة ٠

ويذكر المؤرخون أنه فى أثناء الشهرين اللذين أقامهما الخليفة مروان بن الحكم فى مصر ، أمر ببناء الدار البيضاء ليسكنها وقال انه لا ينبغى للخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها دار(٣) كذلك أمر عبد العزيز بن مروان أمير مصر ببناء الدار المذهبة سنة ٦٧ هـ فى

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٣ ٠

(٢) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام (القاهرة ١٩٤٧) ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ وماذكرته من مراجع ٠

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٥ ٠

غربى المسجد الجامع وكانت تدعى « المدينة » (١) وحسبنا هذه التسمية لنعرف مبلغ تلك الدار من العظمة والفخامة .

أما الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه فان أبدع ما شيده هو قبة الصخرة فى بيت المقدس . ثم بلغت العمارة والفنون مبلغا عظيما من الاتقان والبهاء والجمال فى خلافة الوليد بن عبد الملك .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٩ .

٢ ـ الفسطاط :

كان تخطيط المدن من أهم الظواهر التى سارت جنبا الى جنب مع الفتوحات العربية وذلك رغبة فى انشاء مراكز ادارية وحربية ودينية فى البلاد الجديدة التى فتحها العرب ٠

وقيل ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها ٠ وكتب الى عمر ابن الخطاب يستأذنه فى ذلك ، فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل ٠ فكتب عمر الى عمرو : بانى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم فى شتاء ولا صيف ٠ فتحول عمرو ابن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط ٠

وقيل كذلك ان عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى، والى عامله بالبصرة ، والى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية، ألا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت ٠ فتحول سعد من مدائن كسرى الى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط ٠ أى أن المؤرخين العرب يرجعون عدم اختيار الاسكندرية عاصمة للعرب الى خوف عمر بن الخطاب من ركوب البحر ٠ ولكن الواقع ان الاسكندرية متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة للحكم ٠ ولا ننسى أن الاسكندرية عند فتح العرب لها كانت مدينة يونانية بمعنى الكلمة ، يونانية فى سكانها وعاداتها وميولها فلم يكن

من المنتظر أن يتخذها العرب عاصمة لهم ٠

أما عن كيفية اختيار موقع الفسطاط فيذكر المؤرخون العرب أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد استيلائه على حسن بابليون أمر بنزع فسطاطه فاذا فيه يمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم بنا ، وتركه ، ولما عاد المسلمون من الاسكندرية وقالوا أين ننزل ؟ قال الفسطاط ، لفسطاطه الذى كان قد خلفه(١)

وقال الجوهرى : الفسطاط بيت من شعر ، قال ومنه فسطاط مدينة مصر ٠ ودر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط (٢) وقال الزمخشرى : الفسطاط اسم لضرب من الابنية ، والذى عليه الجمهور أنه يسمى بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص رضى الله عنه يعنى خيمته (٣) ٠

على أن الرواية التى يذكرها المؤرخون العرب عن تسمية الفسطاط واختيار موقعها أقرب الى الخيال منها للحقيقة ٠ فالمؤرخون ينسجون كثيرا من الخيال حول حوادث فتح العرب لمصر كأن المصادفة والحظ قادا العرب دائما الى ما هو حسن ٠ ولكن المواقع الهامة فى أنحاء العالم عرفها الانسان منذ القدم وان تغيرت أسماء تلك المواقع بتغير الأزمان ٠وقد عرف المصريون القدماء ومن أتى بعدهم على مر الزمن مزايا موقع منف والمنطقة المحيطة به ، وان اتخذ هذا الموقع أسماء مختلفة باختلاف الأزمنة مثل الفسطاط والقاهرة ويمتاز هذا الموقع بتوسطه بين مصر السفلى ومصر العليا وله عدة مزايا حربية

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر (طبعة تورى) ص ٩١ ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٢ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٣٠ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧ ٠

(٢) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٢ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٣٠ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٦ ٠

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى : ج ٣ ص ٣٣٠ ٠

وادارية وسياسية وتجارية • ويذكر المؤرخ اليونانى سترابو أن حصن بابليون الذى يقع قريبا من موقع منف كانت فيه احدى الحاميات الثلاث فى مصر •

وقد عرف العرب كما عرف الذين قبلهم أهمية ذلك الموقع فاختطوا مدينة الفسطاط فى الفضاء الواقع شمالى بابليون • ويذكر المقريزى(١) أن موضع الفسطاط كان فضاء ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم الذى يقع فى شرقى مصر ، ولم يكن فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون أو قصر الشمع • فلما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية فتحها الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط جامعه ، واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها •

أما اسم فسطاط فنحن نرجح أن أصله غير عربى وأنه مشتق من اللفظ اليونانى « فساطن » ، ذلك اللفظ الذى اشتق من اللفظ اللاتينى فساتم Fossatum الذى كان يطلقه الرومان على معسكراتهم الحربية •

ولما اختط العرب مدينة الفسطاط فى سنة ٢١ هـ قسمت الى خطط أو أقسام ، وسكنت كل قبيلة خطة من الخطط • ومن الخطط من كان يسكنها من هو من أصل فارسى أو رومى (أى يونانى) وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة ، أما الأكثرية العظمى فكانوا من العرب ولا سيما عرب الجنوب أو اليمنية •

وعنى العرب منذ تخطيط الفسطاط ببناء مسجد جامع لهم • وكان تأسيس المساجد الجامعة يسير جنبا الى جنب مع تخطيط المدن فى البلاد المفتوحة • فبنى عمرو بن العاص المسجد الجامع فى الفسطاط سنة ٢١ هـ • ولما كان هذا المسجد أول جامع بنى فى

---

(١) الخطط ج ١ ص ٢٨٦ •

مصر الاسلامية فقد عرف باسم تاج الجوامع ، والجامع العتيق ، وجامع عمرو بن العاص • وكان المسلمون يقيمون فى المسجد الجامع شعارهم الدينية فيقيمون فيه الصلوات الخمس ويجمعون الجمع ، كذلك كان المسجد الجامع مدرسة دينية يتعلم فيه الناس أصول الاسلام وقواعده كما كان مركزا للقضاء كذلك اختط العرب مدينة الجيزة • فعندما اختطت القبائل الفسطاط نزلت همدان موضع الجيزة • وكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بذلك فكتب اليه عمر : « كيف رضيت أن تفرق أصحابك ولم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى مايفجؤهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم اليك فان أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فىء المسلمين حصنا » • فلما عرض عليهم عمرو بن العاص رأى أمير المؤمنين فضلوا البقاء بالجيزة ، فبنى لهم عمرو ابن العاص الحصن بالجيزة فى سنة ٢١هـ وفرغ من بنائه سنة٢٢ هـ واختطوا فى الجيزة خططا عرفت بهم مثل خطط الفسطاط • كذلك نزل قوم من العرب فى الاسكندرية ، على أن الاسكندرية لم يكن فيها خطط وانما كانت « أخائذ » أى من أخذ منزلا نزل فيه ، ويقال ان الزبير بن العوام اختط بالاسكندرية •

وهكذا نرى أن العرب الذين استقروا فى مصر بعد الفتح ومعظمهم من اليمنية كانوا يقيمون فى قاعدة الاسلام الأولى فى مصر وهى الفسطاط ، وسكن بعضهم الجيزة ، والبعض أقام فى الاسكندرية •

وبنى عمرو بن العاص دارا للامارة فى الفسطاط فى الجهة البحرية من الجامع عرفت « بالدار الكبرى » تمييزا لها عن دار ابنه عبد الله التى كانت فى غربى الجامع وعرفت بالدار الصغرى • كذلك بنى الزبير بن العوام دارا بجوار دار عبد الله •

لكن الفسطاط والجامع نالهما كثير من التطوير والتجديد والاتساع بعد الفتح تمشيا مع تطور الحياة في الدولة الاسلامية الناشئة فبعد أن كان البناء في أول أمره باللبن (الطوب النيىء)، والدار من طبقة واحدة أصبح معظم بنائهم بالطوب وأصبح عبارة عن طبقات .

وشيد عبد العزيز بن مروان في الفسطاط دارا للامارة عرفت بدار عبد العزيز وكانت هذه الدار تطل على النيل وكان يعلو هذه الدار قبة مذهبة ومر بنا في الفصل السابق أن عبد العزيز بن مروان أمر ببناء هذه الدار في سنة ٦٧ هـ في سوق الحمام غربي المسجد الجامع ، وبلغ من عظمة وفخامة هذه الدار انها كانت تدعى « المدينة » . وبنى في الفسطاط الحمامات والاسواق ، وبنى عبد العزيز بن مروان القيساريات مثل قيسارية العسل ، وقيسارية الحبال وقيسارية الكباش ، والقيسارية التي يباع فيها البز وكانت تعرف بقيسارية عبد العزيز .

أما جامع عمرو بن العاص فلم يتركه المسلمون « بسيطا » كما كان وقت بنائه ، ففي ولاية مسلمة بن مخلد الانصاري على مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان (٤٧ — ٦٢ هـ) ضاق المسجد بأهله وشكوا ذلك الى مسلمة ، فكتب مسلمة في ذلك الأمر الى معاوية وأجاب معاوية طلب المسلمين في مصر فأمر مسلمة بالزيادة فيه وزاد مسلمة في المسجد الجامع في سنة ٥٣ هـ من شرقيه ومن شماله وجعل له رحبة في شماليه ، وطلاه بالجص وزخرف جدرانه وسقوفه ، ولم يكن قبل ذلك فيه طلاء أو زخرف .

كذلك جعل مسلمة للجامع أربع صوامع أو مآذن في أركانه الأربعة ، وهو أول من جعلها فيه ، كذلك أمر ببناء منار المسجد . كذلك فرش مسلمة الجامع بالحصر وكان قبل ذلك مفروشا بالحصباء (١) والحق أن جامع عمرو بن العاص ناله من التحسينات

---

(١) خطط المقريزي : ج ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

والزيادات قدر ما نال العمـارة والفنون الاسـلامية من التقدم فى ذلك العهد .

وكان بجامع عمرو بابان فى شرقى المسجد يقابلان دار عمرو ابن العاص ، وكان له بابان فى شماليه وبابان فى غربيه ، وكان بينه وبين دار عمرو بن العاص سبع أذرع .

وتذكر الروايات أنه لم يكن لجامع عمرو فى بادىء الأمر محراب مجوف ويقال ان أول من جعل المحراب قرة بن شريك، وهكذا بدأت العناية بمسجد عمرو بن العاص منذ ولاية مسلمة بن مخلد على مصر (٤٧ ــ ٦٢ هـ) . ثم عنى عبد العزيز بن مروان بهذا الجامع عناية كبيرة فأمر بهدمه كله وزاد فيه من جوانبه كلها وذلك فى سنة ٧٧هـ(١) وظل ولاة مصر يتعهدون هذا المسجد بالعناية والرعاية بعد عبد العزيز ابن مروان اذ ظل جامع عمرو بن العاص المسجد الجامع الوحيد فى مصر فى عهد الولاة الى أن بنى الفضل بن صالح بن على العباسى فى ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدى جامع العسكر فى سنة ١٦٩هـ فى مدينة العسكر التى اختطها العباسيون فى سنة ١٣٣هـ وبعد عهد الولاة كثر بناء المساجد الجامعة فى مصر وخاصة فى عهد المماليك، على أن جامع عمرو بن العاص وهو أقدم جامع فى مصر العربية الاسلامية ظل موضع عناية ورعاية حكام مصر فى عصورها المختلفة . وتذكر المصادر القديمة أن عمرو بن العاص اتخذ منبرا لجامعه وفي اعتقادنا أن عمرو بن العاص ان كان قد اتخذ منبرا ففى ولايته الثانية على مصر حين كان واليـا فى خلافة معـاوية بن أبى سيفان لأننا نعلم أن عمر بن الخطـاب كان لا يزال يتمسك « بالبساطة » وعارض عمرو بن العاص حين اتخذ منبرا وأمره بكسر المنبر . وقيل ان منبر جامع عمرو بن العـاص أقيم فى ولاية عبـد العزيز بن مروان على مصر وذكر أنه حمل اليه من بعض كنائس مصر ، وقيـل ان ملك النوبة أهداه الى عبد العزيز بن مروان وبعث معه نجاره الذى ركبه

(١) ابن عبد الحكم (طبعة تورى) ص ١٣١ ، والكندى ص ٥١ .

واسمه بقطر من أهل دندرة • ولم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد قرة بن شريك فى الجامع ونصب منبرا جديدا فى سنة ٩٤ هـ ونزع المنبر الذى كان فى المسجد• أما فى قرى مصر فلم يكن يخطب الا على العصى الى أن ولى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصيرمصر من قبل مروان بن محمد فأمر فى سنة ١٣٢ هـ باتخاذ المنابر فى القرى (١) ويذكر الأستاذ كريزويل أن شكل المنبر الاسلامى مشتق من المنبر المسيحى الشرقى •

وهكذا نرى أن عبد العزيز بن مروان وغيره من ولاة مصر وحكامها أخذوا يتعهدون جامع عمرو بن العاص بالزيادة والزخرفة والتحسينات • ولم يشتغل العرب فى أول الأمر بالصناعة فى مصر وانما قام ببناء العمارة الاسلامية فيها « معماريون » وبناءون من أهالى البلاد وصبغها الفاتحون بصبغة دينهم • ولا شك فى أن العمارة القبطية كانت متقدمة حين فتح العرب مصر ،وقد نقل العرب من المعابد والكنائس القديمة كثيرا من الأعمدة والتيجان ، استخدموها فى مساجدهم وبيوتهم كما يتجلى من وجود الأعمدة القبطة فى جامع عمرو•(٢) ونجد كثيرا من أعمدة الكنائس الرخامية فى معظم المساجد ، ولكن يجب ألا يتطرق الى أذهاننا أن الكنائس خربت عمدا لتسد حاجة البناء فى المساجد وخاصة فى العهد الأول للاسلام ، انما كان من السهل أن يأخذ العرب بقايا ما خربه الفرس فى أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربى • وقد اتخذ العرب كثيرا من كنائس النصارى ، مساجد لهم بعد أن غلبوا على القرى فى عهد الخليفة المأمون (٣) وهذا نتيجة منتظرة لانتشار الاسلام وازدياد

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٨ ، Creswell : Coptic Influences on Early Muslim Architecture, p. 29.

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية ص ٧ – ٨ (مجلة جمعية الآثار القبطية – القاهرة ١٩٣٧ م) •

(٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٦١ – ٢٦٢ •

عدد المسلمين فضلا على أنه لم يكن جديدا فى التاريخ ، فانه لما أصبحت المسيحية فى القرن الرابع للميلاد الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية ، حول النصارى فى مصر الهياكل الى كنائس بأن نقشوا الصلبان على أعتاب أبوابها وأعمدتها وأبادوا الأصنام وغطوا ما كان منقوشا على جدرانها من صور الآلهة القديمة بطبقة من الجص رسموا عليها صور السيد المسيح والرسل والقديسين ، وبنوا مذابح لاقامة القداس ، ولا تزال آثار ذلك ظاهرة الى يومنا هذا فى أغلب معابد الوجه القبلى • كما نرى فى بعض الكنائس والأديرة أحجارا انتزعت من المعابد الفرعونية القديمة استخدمها القبط فى أبنيتهم الجديدة • (١) •

ومهما يكن من شىء فان العمارة الاسلامية أخذت عن القبط بعض العناصر « المعمارية » ، فكثير من العلماء يظن أن المحراب مأخوذ عن « الحنية » التى « توجد » فى صدور الكنيسة الى جهة الشرق ، وأن مآذن الجوامع الاسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس كذلك أخذ المسلمون عن القبط فى زخرفة المبانى كثيرا من الموضوعات الزخرفية النباتية والهندسية كما أخذوا عنهم طلاء المبانى بطبقة من الجص(٢) • ولم يقتصر الأمر على استخدام العرب للصناع المصريين فى العمارة والفنون فى مصر بل كثيرا ما استخدموهم فى الابنية التى أنشئت فى غير مصر •

وقد بلغ من شغف عبد العزيز بن مروان بالعمارة أنه بنى فى مدينة الفسطاط حماما لابنه زبان وأقام على بابه تمثالا عجيبا من الزجاج على صورة امرأة وأطلق عليه «أبو مرة» ، وقد اطلق اسم «أبو مرة» أيضا على القيسارية التى كان يمتلكها عبد العزيز •

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية ص ٨ وما ذكره من مراجع •

(٢) المرجع السابق ص ٩ ــ ١٠ وما ذكره من مراجع •

وهكذا أخذت الفسطاط ـ قاعدة العروبة الاولى فى مصر ـ تنمو وتزدهر زمن عبد العزيز بن مروان ، متمشية فى ذلك مع تطور الحياة العربية فى الخلافة الاسلامية آنذاك ، ولم يتوقف ازدهار تلك المدينة طوال العصور الاسلامية المختلفة • ولم يكن سبب ازدهار الفسطاط انها كانت فحسب قاعدة للحكم والادارة ، أو موقعها المتوسط بين الوجه البحرى والقبلى ، وانما كانت الفسطاط من أعظم موانى مصر ترد اليها المتاجر المختلفة من الشرق والغرب • وساعد على ازدهار ميناء الفسطاط بعد قدوم العرب الى مصر ، اعادة حفر القناة القديمة التى كانت تخرج من النيل شمالى بابليون فى الجهة الشمالية الغربية من جامع السيدة زينب الآن ، وتصل الى القلزم (السويس الحالية) على رأس البحر الاحمر والتى عرفت باسم خليج أمير المؤمنين نسبة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب • وقد زاد نشاط مصر التجارى فى فجر الاسلام نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص ، ولان مصر والشام وبلاد العرب وبلاد المغرب أصبحت كلها جزءا من امبراطورية واحدة • ولم يكن فتح العرب مصر سببا فى قصر تجارتها على دول الشرق وضعف علاقاتها التجارية مع بلاد الغرب ، بل ان مصر ظلت طريقا للتجارة بين الشرق والغرب معا كذلك ظلت مصر تتبادل التجارة مع النوبة والسودان وأواسط افريقية •

وقد أقام عبد العزيز بن مروان على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى فى طرف الفسطاط (ومكانها الآن على الخليج عند مسجد السيدة زينب) ونقش عليها اسمه سنة ٦٩هـ •

كذلك اشتهرت الفسطاط بصناعة السفن الحربية والتجارية وكان مقر هذه الصناعة فى جزيرة الروضة •

كذلك كانت الفسطاط سوقا لأهم الصناعات التى اشتهرت بها مصر حينئذ ، وأهمها صناعة المنسوجات تيلية كانت أو صوفية أو حريرية أو قطنية ، وكذلك صناعة الورق من البردى الذى كان

ينمو بكثرة فى مصر وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم، وصناعة الخشب وصناعة الخزف والزجاج والمعادن ، والفنون الدقيقة كالحلى وأدوات الزينة ، وصناعة الزيوت والعطور والفخار ٠

كذلك كانت الفسطاط سوقا للحاصلات الزراعية التى تنمو فى أرض مصر مثل القمح والشعير والقرطم والفول والعدس والحمص والسمسم والترمس والبصل والثوم والقلقاس والكرنب والباذنجان واللوبيا والبطيخ والفجل واللفت والكرم وقصب السكر والتوت والخوخ والمشمش والتمر والموز والنرجس والياسمين والريحان الخ٠

أما الرحالة البغدادى ابن حوقل الذى توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأواخر القرن العاشر الميلادى ، والذى زار الفسطاط فى النصف الاخير من القرن الرابع الهجرى ، فقد ذكر ان امتداد الفسطاط على ضفة النيل بلغ ثلاثة أميال ٠ والحق أن الفسطاط ارتقت وتقدمت وبلغ فيها العمران مبلغا كبيرا ٠ وكان اتساع الفسطاط الى جهة الشمال والى الجهة الشرقية التى تجاور المقطم أو الى الغرب أو الى الجنوب ، والمعروف أن العباسيين لما جاءوا الى مصر وأزالوا الحكم الاموى فيها ، اختطوا عاصمة جديدة لمصر فى الصحراء الواقعة شمال شرقى الفسطاط وذلك فى سنة ١٣٣هـ (٧٥٠ م) وسموها العسكر ٠ وكان ذلك الجزء من الصحراء يعرف باسم الحمراء القصوى ولم يكن به من العمائر الا عدة اديرة وكنائس ٠ وبنى العباسيون فى العسكر دارا للامارة ، كما بنوا المحال والاسواق والدور ، وكان ذلك اما لرغبة العباسيين فى أن يتخذوا لأنفسهم مقرا لم يسبق اليه غيرهم واما لان مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين كان قد أضرم حريقا خرب جانبا كبيرا من الفسطاط كما يقال فى بعض الروايات ٠ وبالرغم من بناء العسكر فقد حفظت الفسطاط مركزها ٠ بل ان انشاء القطائع ـ عاصمة أحمد بن طولون ـ فى المكان الواقع فى سفح جبل يشكر الى الشرق من العسكر ، والشمال الشرقى من الفسطاط حيث يوجد الآن قرة

ميدان والمنشية وميدان صلاح الدين ، لم يقض على الفسطاط أو العسكر • والواقع ان القطائع والعسكر لم تكونا فى الحقيقة الا ضاحيتين للفسطاط أو امتدادا لها مع أن الناس حينئذ كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها كما اعتبروا القطائع بعد ذلك• وظلت الفسطاط المركز الأعظم للحياة المصرية •

وكان سكان الفسطاط يستمدون مياه الشرب « بوساطة » السقائين الذين كانوا يجلبون المياه من النيل فى القرب ، وكانت المياه تحفظ بعد ذلك فى أزيار من الفخار أو تحفظ فى صهاريج صغيرة معدة فى المنازل •

كذلك حفرت آبار كثيرة فى الفسطاط وكانت مياه الآبار ترفع « بواسطة » السواقى أو بالآلات الرافعة اليدوية • وقيل فى الروايات القديمة ان دار عبد العزيز بن مروان فى الفسطاط بلغت من السعة وكثرة الساكنين مبلغا كبيرا لدرجة انهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية ماء كل يوم •

وكانت « القرافة » من معالم الفسطاط فقد اتخذ المسلمون مقابرهم فى أرض المقوقس عند السفح الشرقى للمقطم وخصص فى جنوبى « القرافة » مكان لدفن موتى الاقباط • وقد دفن عمرو ابن العاص فاتح مصر فى « قرافة » الفسطاط كما دفن غيره من الصحابة والمسلمين • ولما توفى أمير مصر عبد العزيز بن مروان فى حلوان حمل من حلوان الى الفسطاط ودفن فى « قرافتها » •

٣ ـ حلوان :

عرفنا كيف كان عبد العزيز بن مروان مهتما بالعمارة والفنون وكيف اهتم اهتماما كبيرا بالفسطاط مقر امارته ٠ لكن عبد العزيز اتخذ له منذ سنة ٧٠ هـ ، أى بعـد قدومه أميرا على مصر بخمس سنوات ، مقرا آخر له هو مدينة حلوان الى الجنوب من الفسطاط ٠

وتذكر المصادر التاريخية أن سبب سكنى عبد العزيز لحلوان هو أن الطاعون وقع بمصر فى سـنة ٧٠ هـ فخرج عبد العزيز من الفسطاط الى حلوان وسكنها ٠ ونحن نرجح أن عبد العزيز أراد أيضا أن يكون له مقر آخر غير الفسطاط على عادة الخلفاء الامويين، وهو ابن خليفة وأخ لخليفة وولى عهد الخلافة ٠ والمعروف أن معاوية ومروان كانا يشتوان فى الصنبرة (على الشاطىء الجنوبى لبحيرة طبرية) ، وكان يزيد بن معاوية يحب الاقامة فى حوارين وأذرعات، وكان عبد الملك بن مروان يفضل الاقامة فى الجابية على غيرها ٠ وقد بقى مع الايام بعض أطلال العمائر الاموية التى أقامها الخلفاء الامويون فى بادية الشام من الشمال الى الجنوب ، ولعل بعض هذه الاطلال المنتشرة فى بادية الشام كانت حصونا حربية ، أو مصانع على حد تعبير العرب القدماء ، ولعل البعض الآخر كان قصورا شتوية مثل قصر خربة المفجر فى فلسطين الواقع على بعد ثلاثة أميال من أريحا شمالا ٠ ولعل البعض كان قصورا يلجأ اليها الخلفاء الامويون للاستجمام من متاعب الحكم وللصيد ، وليشبعوا ما فى نفوسهم من حنين الى حياة البادية ولم يكن عهد الخلفاء الامويين قد بعد عن حياة البادية بعد ٠ كذلك كان الخلفاء الامويون يخرجون الى قصور البادية

أحيانا فرارا من الامراض الوبائية • ونحن نرجح أن عبد العزيز ابن مروان حين اتخذ حلوان مقرا آخر له بالاضافة الى الفسطاط كان يتشبه في ذلك بالخلفاء الامويين وكان له نفس الدوافع التى دفعتهم الى اتخاذ قصور فى بادية الشام •

ويقال ان عبد العزيز بن مروان نزل فى صحراء حلوان فى موضع يقال له (أبو قرقورة) وهو رأس العين التى احتفرها ذلك الامير وساقها الى نخيله التى غرسها بحلوان •

وقد بنى عبد العزيز الدور والمساجد فى حلوان وعمرها أحسن عمارة وغرس فيها الاشجار والنخيل حتى قيل انه أنفق فى بنائها مليون دينار • وفى حلوان قال ابن قيس الرقيات :

سقيا لحلوان ذى الكروم وما

صنف من تينه ومن عنبه

وقيل ان عبد العزيز بن مروان أنشأ بركة كبيرة فى حلوان ساق اليها الماء من العيون القريبة من جبل المقطم على قناطر معلقة Aqueducts تصل عيون الماء بالبركة • وهذه القناطر المشيدة على أعمدة والتى كانت توصل المياه الى المدن كانت منتشرة فى الدولة الرومانية فى القرن الثانى الميلادى ويظهر أن الامويين أخذوا هذا النوع من القناطر عن الروم • وسنرى أحمد بن طولون يبنى فى القرن الثالث الهجرى قناطر معلقة شبيهة بالقناطر الرومانية المرفوعة لتوصيل المياه الى عاصمته القطائع من الجهة الجنوبية الشرقية من عين أو بئر ، وقد عرف المصريون هذه القناطر باسم السقاية •

وأصبح لعبد العزيز بن مروان ميناء للسفن بحلوان يركب منها اذا ما شاء الذهاب الى الفسطاط أو الى الاسكندرية • واتخذ فى حلوان الحرس والاعوان والشرطة كما ذكرنا فى الفصول السابقة •

٤ ـ انشاءات واصلاحات :

كان عهد عبد العــزيز بن مروان عهد تعمير واصــلاح وعناية بكافة مرافق البلاد • وكانت سياسة التعمير والاصلاح التى اتبعها عبد العزيز متمشــية مع سياسه العرب بوجه عام حــين قدموا الى مصر ؛ فقد عنى العرب منذ فتحوا مصر بصــيانة جسورها وتطهــير خلجانها وترعها وقد رأينا أن عمرو بن العاص جدد حفر القناة التى تصل بين النيل عند الفسطاط وبين البحر الأحمر وهى التى عرفت باسم خليج امير المؤمنين • كذلك عنى العرب بتحصين ثغور مصر ، وكلما توالت هجمات الروم على مصر ازدادت عناية العرب بتحصين ثغورها • كذلك عنى العرب بالعمارة والفنون وتقدمت العمارة والفنون تقدما كبيرا منذ خلافة الأمويين ووضحت العنــاية بالعمارة والفنون فى مصر فى عهد عبد العزيز بن مروان ، فعظمت الفسطاط وتألقت وبنيتفيها الدور الفخمة واولها دار عبد العزيز التىكانت تطل علىالنيل ، كذلك بنيت الأسواق والقيساريات والقناطر وأعيد بناء جامع عمرو بن العاص • ولم يقتصر الأمر على الفسطاط كما مر بنا بل ان عبد العزيز مروان بنى له مدينة جديدة هى حلوان وعنى بها عناية فائقة فازينت بالدور الفخمة والمساجد والحدائق والمحال والأسواق وأصبحت حلوان معينا فياضا لخيال الشعراء وشمل تعمير عبد العزيز الكنائس فجددت فى عهـــده كنائس وبنيت كنائس أخرى ، فبنيت كنيسة مار جرجس وكنيسة «أبو قير» فى داخل قصر الشمع أو حصن بابليون ، كذلك جددت كنيســـة القديس مرقص كما بنيت كنائس أخرى فى حلوان •

وكانت مصر تعتمد اعتمادا رئيسيا فى ثروتها على الزراعة التى كانت مصدر خيراتها الوافرة ٠ وكانت مصر تنتج الحبوب بكثرة وخاصة القمح وكذلك الخضر والفاكهة ، وكان يزرع فيها الكتان بكثرة وكذلك قصب السكر ٠ ولا نعرف أن العرب بعد قدومهم الى مصر ، أدخلوا أصنافا جديدة من المزروعات فيها ، او طرقا جديدة للزراعة والرى غير تلك التى كانت فى مصر ٠ والواقع ان طريقة زراعة الأراضى فى مصر ظلت كما هى منذ عهد الفراعنة ، وان كانت قد تقدمت نوعا فى عهد الرومان الا أنها ظلت على حالها من غير تغييرات أخرى حتى أوائل القرن التاسع عشر ٠ وكانت الطريقة الشائعة للرى حتى القرن التاسع عشر هى طريقة رى الحياض اللهم الا فى بعض الجهات التى كان يمكن ريها ريا دائما مثلما كان يحدث مثلا فى أراضى الحدائق بالفيوم ٠

وعرف العرب أن واجبهم ، كواجب أى حكومة تحكم البلاد المصرية ، أن يشرفوا على أمور الري والزراعة فان نظام الرى والزراعة هو الذى جعل مصر أسبق الأمم منذ العصور القديمة الى الوحدة والنظام والى الخضوع لحكومة منظمة موحدة تنظم الانتاج وتنظم الرى وتحفر الترع وتقسم الاحواض وتهتم بالجسور وتدفع خطر الفيضان وغير ذلك من الأمور التى تتطلبها هذه البلاد والتى لا يستطيع الأفراد القيام بها من غير هيئة عليا تشرف عليها وتقوم بالنفقات التى تلزمها ٠ ويذكر المؤرخون أنه عقب الفتح مباشرة كانت حكومة العرب تباشر حفر الترع واقامة الجسور ، وبناء القناطر وغير ذلك مما يلزم الرى والزراعة ٠ وكان يقوم بذلك العمل صيفا وشتاء حوالى ١٢٠٫٠٠٠ عامل وقد اهتم العرب عقب الفتح مباشرة ببناء مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان فى مياهه ، ليكون ذلك معيارا صادقا للزراعة والرى وللضرائب فى كل عام ٠ على أن العرب لم يكونوا أول من بنى مقاييس للنيل فى مصر ، وانما عرفت مقاييس النيل منذ التاريخ القديم ٠ وبرغم وجود مقاييس للنيل

قبل الفتح العربي نرى الخليفة عمر بن الخطاب يهتم ببناء مقاييس جديدة ، وكانت المقاييس العربية مقسمة الى أذرع وكل ذراع ينقسم الى أربعة وعشرين أصبعا . والمعروف أن عمرو بن العاص بنى مقاييس للنيل في اسوان ودندرة ثم بنى في خلافه معاوية بن أبى سفيان مقياسا للنيل في الصعيد في مدينة في شرقي النيل اسمها أنصنا . ولما جاء عبد العزيز بن مروان استمر في سياسة الاصلاح والتعمير ونراه يبنى مقياسا للنيل في حلوان وفي خلافة سليمان ابن عبدالملك بنى أسامة بن زيد التنوخي عامل الخراج مقياسا بجزيرة الروضة سنة ٩٧ هـ ثم بنى الخليفة المتوكل مقياسا بجزيرة الروضة في سنة ٢٤٧ هـ ، وقد عثر على مقياس المتوكل في جزيرة الروضة. وطبيعي أن العرب عملوا كل ما من شأنه زيادة الانتاج ، لأن ذلك يكفل كثرة المال وكثرة القمح . ونرى في عقود ايجار الاراضي في ذلك العهد أن المؤجر يشترط على المستأجر شرطا هذا نصه : « وما بورت فعليك خراجه » أي أنه يلزمه بدفع الخراج عن الأراضي التي يتركها دون زرع حتى تصبح أراضي بورا ، وطبيعي ألا يرضى الزارع أن يدفع خراجا عن الأراضي البور التي لا يستفيد منها ، فكان هذا الشرط يحمل الزارعين على الانصراف الى الزراعة وعدم اهمال الأرض . ولعل هذا الشرط الذي اعتاد المؤجرون أن ينصوا عليه ، كان بسبب حرص الحكومة على زراعة الأرض وعدم اعفاء الأرض البور من الخراج .

وكانت الأراضي بمصر تقاس بالفدادين كما هو الحال الآن . وكان ايجار الأراضي يدفع نقدا أو نقدا وعينا ، ولكننا لم نعثر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الايجار كان يدفع عينا فحسب . وكان ايجار فدان القمح يتردد في ذلك العهد بين دينار وديناريين وأحيانا يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار فيكون الايجار ½ دينار أو ½ ٢ من الدينار . وحسبنا دليلا على رخاء مصر وازدهار زراعتها في فجر الاسلام ما كتبه النويري في الكلام عن فضائل مصر (نهاية

الارب ج ١) ، فقد جاء فيه : « وقال سعيد بن عقبة : كنت بحضرة المأمون حتى قال وهو فى قبة الهواء (١) : لعن الله فرعون حين يقول أليس لى ملك مصر ! فلو راى العراق ! فقلت : يا أمير المؤمنين ! لا تقل هذا فان الله عز وجل قال : (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون) فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله، هذا بقيته ؟ قال : ثم قلت : لقد بلغنى ان أرضا لم تكن أعظم من مصر ، وجميع أهل الأرض يحتاجون اليها • وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى ان الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم: يحبسونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا • وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله الى آخره ، مابين أسوان الى رشيد الى الشام متصلة لاتنقطع• ولقد كانت الأمة تضع « المكيل » على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر • وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج الى خمار لكثرة الشجر » •

---

(١) بناها والى مصر حالم بن هرثمة أمير مصر للخليفة الامين محل القلعة الحالية •

الفصل العاشر

بيت عبد العزيز بن مروان

١ ـ أزواج عبد العزيز بن مروان .
٢ ـ أولاد عبد العزيز بن مروان .
٣ ـ أحفاد عبد العزيز بن مروان .

١ ـ أزواج عبد العزيز بن مروان :

ذكرنا في مطلع هذا الكتاب شيئا عن أسرة عبد العزيز بن مروان التي انحدر منها الى أن تولى عميدها مروان بن الحكم خلافة العرب • لكننا لا نكاد نجد في مصادرنا القديمة الا القليل النادر عن سير أفراد الأسرة المروانية بالرغم من مكانتها الكبيرة في قريش ـ قبيلة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وبالرغم من زعامتها للعالم الاسلامي ••وربما يرجع ذلك الى أن الكتب التي وصلت الينا دونت في العصر العباسي ، وكما نال التقصير تاريخ العصر الأموى ، أدرك هذا التقصير سير خلفائهم وأمرائهم وعظمائهم •

ولعل السبب في ذلك أيضا أن بداية التأليف العلمي في التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة الصلة بالحديث والسنة فركز المؤرخون المسلمون الأول اهتمامهم في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وفي أفعاله وغزواته وحياته الخاصة ، ونحن نعرف أن أقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين الحديث والتاريخ هي كتب المغازي والسير •

ولعل الحوادث الأولى في الاسلام ثم ما انتاب المسلمين من تفرق ونزاع عقب مقتل عثمان وعقب وفاة معاوية وابنه يزيد ، ولعل تلك الفترة العصيبة وما وقع فيها من أحداث جسيمة لم يترك مجالا للرواة والمؤرخين كي يتحدثوا ويفيضوا في الحديث عن السير الشخصية للخلفاء والأمراء •

ومر بنا أننا لا نكاد نعرف شيئا عن تنشئة عبد العزيز بن

مروان وعن نشاطه قبل أن يلي مصر ولكننا عرفنا منذ قدومه الى مصر حتى وفاته كيف كان شعلة من الحماسة والنشاط ، وكيف تطورت الحياة فى مصر على يديه ، وكيف سير الدفة فى بلادنا بمهارة فائقة فى زمن كان فيه المصريون شعبا أعجميا اجنبيا بالنسبة للعرب وكان العرب غرباء على المصريين .

ومر بنا أن عبد العزيز حين قدم الى مصر فى امارة مسلمة ابن مخلد تمنى أمانى حققها الله له جميعا ومنها أن يجمع بين امرأتى مسلمة بن مخلد . ومن هذه الرواية نعلم أن عبد العزيز تزوج امرأتى مسلمة وهما أم كلثوم الساعدية ، وأروى بنت راشـــد الخولانى .

كذلك نعرف من أزواج عبد العزيز ليلى بنت سهل بن حنظلة ابن الطفيل من كلاب ، وقد ولدت له أم البنين التى تزوجها الخليفة الوليد بن عبد الملك .

كذلك تزوج عبد العزيز بن مروان حفصة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وتوفيت عنده .

كذلك تزوج عبد العزيز بن مروان أم عاصـم ، وهى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فولدت له عمر بن عبد العزيز بن مروان واخوة له ثم توفيت عنده . ولما توفى ابراهيم بن نعيم زوج حفصة بنت عاصم بن عمر بن الخطاب تزوجها عبد العزيز بن مروان وحملت اليه وهو بمصر .

ومن هذه الأخبار المتفرقة نستطيع أن نتبين أن عبـد العزيز ابن مروان كان له زوجات قبل امارته على مصر ، كما تزوج وهو أمير على مصر ، وان كنا لا نعرف بالتأكيد الا أن حفصة بنت عاصم تزوجت عبد العزيز بن مروان بمصر وهو أمير عليها كذلك لابد ان عبد العزيز تزوج امرأتى مسلمة بن مخلد بعد أن تولى امارة مصر .

٢ ـ أولاد عبد العزيز بن مروان :

نعرف من أولاد عبد العزيز الأصبغ ولا شك أنه كان ابنه الأكبر ، اذ كنى به عبد العزيز فعرف باسم أبى الأصبغ عبد العزيز ابن مروان • ومر بنا أن الأصبغ كان ساعد عبد العزيز الأيمن فى مصر اذ ناب عنه عدة مرات وهو خارج مصر كما أنه كان يلى أمورا هامة فى مصر • لكن عبدالعزيز فجع فى ابنه الأكبر اذ توفى الأصبغ قبل أبيه يوم الخميس لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٨٦ هـ. ومرض عبد العزيز بعد وفاة الأصبغ وتوفى ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ٨٦ هـ ، أى بعد وفاة ابنه باثنين وعشرين يوما • وقد بكاهما ورثاهما معا الشعراء المصريون • وكان الأصبغ يكنى بأبى زبان • ولا نعرف تماما من هى والدة الأصبغ •

ومن أولاد عبدالعزيز بن مروان زبان الذى قيل ان عبدالعزيز بنى له حماما فى الفسطاط • كذلك نعرف من أولاده « سهيل » •

واشتهر من أولاد عبد العزيز النساء أم البنين التى تزوجها الخليفة الوليد بن عبد الملك وهى بنت ليلى بنت سهيل بن حنظلة ابن الطفيل الكلابى •

أما أشهر أولاد عبد العزيز بن مروان على الاطلاق فهو عمر ابن عبد العزيز الذى ولى خلافة الدولة الاسلامية من سنة ٩٩ هـ الى ١٠١ هـ (٧١٧ ـ ٧٢٠ م) بعد وفاة الخليفة سليمان بن عبدالملك • وقيل ان عمر بن عبد العزيز ولد فى المدينة سنة ٦١هـ أو ٦٣هـ ، وقيل أيضا انه ولد فى حلوان وعبد العزيز أمير على مصر • أما

أم عمر فهى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ٠

وتذكر الروايات أن عبد العزيز بن مروان لما قدم أميرا على مصر أرسل يطلب زوجه أم عاصم وابنها عمر بن عبد العزيز ولكن عمها عبد الله بن عمر بن الخطاب قال لها :

« خلفى هذا الغلام عندنا ، فانه أشبهكم بنا أهل البيت » ٠

ولما قدمت الى مصر أخبرت زوجها عبدالعزيز بن مروان بما قاله عبد الله بن عمر فسر عبد العزيز ولم يمانع وأرسل الى أخيه الخليفة عبد الملك يعلمه بذلك ، فأمر عبد الملك بأن يجرى عليه ألف دينار كل شهر ٠ وكان عبد العزيز يأتى الى أبيه فى مصر مسلما من وقت لآخر ، وفى الوقت نفسه كان أبوه يهتم بالاطلاع على أخباره ودرسه، وحين توفى عبد العزيز بن مروان كان عمر بالمدينة ، وحين ولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولاه على المدينة ، وقد تفقه عمر بن عبد العزيز حتى بلغ رتبة الاجتهاد ، وروى عمر الحديث وعكف على دراسة الأدب ونظم الشعر حتى قيل : « كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة » ٠

وروى عن الامام أنس بن مالك أنه قال : « ماصليت وراء امام بعد رسول الله أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى ، يعنى عمر ابن عبد العزيز وهو أمير على المدينة » ٠

وقد أنشد رجل فى عمر بن عبد العزيز قائلا :

ان أولى بالحق فى كل حق ... ثم أولى بأن يكون حقيقا
بالتقى والنهى وأخلاقه اللا ... تى تأبى بغيره أن تليقا
من أبوه عبدالعزيز بن مروا ... ن ومن كان جده الفاروقا

***

والمعروف أن المؤرخين العرب الذين جاءوا بعد الدولة الأموية

وكبتوا فى ظل أسر خلفت الأمويين ، وجهوا همهم الى الحط من شأن الأمويين وامتنعوا عن اطلاق لقب « خلفاء » على معاوية ومن جاء بعده من الحكام باستثناء عمر بن عبد العزيز أو عمر الثانى ، الذى فاز دون بقية الحكام الأمويين بلقب خليفة وذلك لشهرته بورعه وتقواه .

٣ ـ أحفاد عبد العزيز بن مروان :

في خلافة مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين في المشرق، وقبيل قيام الدولة العباسية ، ثار عليه في مصر عمرو بن سهيل ابن عبد العزيز بن مروان وتبعه في ذلك الدماحس بن عبد العزيز الكناني في جمع من قيس ،أي عرب الشمال وذلك في سنة ١٣٢ هـ فأرسل اليهم والي مصر آنئذ عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير جيشا قوامه سبعة آلاف شخص برياسة موسى بن المهند ٠ وفي بلبيس التقى هذا الجيش مع الثائرين الذين طلبوا الصلح ، فأجابهم موسى بن المهند الى ما طلبوا ، ثم ظفر بعمرو بن سهيل وحبسه في الفسطاط ٠ وحسبنا دليلا على الاضطراب الذي وصلت اليه مصر في تلك الفترة أن يثور على مروان بن محمد بعض أفراد البيت الاموي عمرو بن سهيل حفيد عبد العزيز بن مروان وأن يتبع هذا الثائر جزء من قبيلة قيس التي كانت موالية لمروان ٠ وبعد مازالت الدولة الاموية وقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، لم يكن هذا معناه انتهاء المقاومة الأموية نهائيا ، فقد ظهر من وقت لآخر بعض أنصار البيت الأموي أو أفراده ، قاموا ضد الخلافة العباسية ولم يتهاون العباسيون في القضاء على المعارضين لهم حتى لو كان هؤلاء ممن ناصروهم من قبل ٠

وفي عهد الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) وفي ولاية ابراهيم بن صالح ، على مصر من قبل ذلك الخليفة (١٦٥ ـ ١٦٧هـ) نسمع عن خروج أحد الأمويين وأنه دعا الى نفسه بالخلافة ، ذلك الأموي هو حفيد عبد العزيز بن مروان واسمه ، دحية بن

مصعب بن الأصيغ بن عبد العزيز بن مروان • وقد خرج دحية بالصعيد ، فلما بلغ ذلك والى مصر تراخى عنه ولم يحفل بأمره ولم يهتم بمحاربته للقضاء عليه ، وكان نتيجة ذلك التراخى أن استفحل أمر دحية وملك أغلب بلاد الصعيد وكاد أمره يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين • فلما علم الخليفة المهدى بذلك سخط على الوالى وعزله سنة ١٦٧ هـ • وفى اعتقادنا أن المسألة لم تكن - كما صورتها الروايات التاريخية - تراخيا من الوالى ، وانما كانت عقيدة من المصريين باحقية أسرة عبد العزيز بن مروان فى حكم مصر وتعلق المصريين بابناء أميرهم عبد العزيز بن مروان الذى عنى بأمورهم وبتحسين بلادهم وبرفع مستوى معيشتهم والذى كان كريما مع المصريين كرما خلده له المؤرخون والشعراء والأدباء •

وولى الخليفة المهدى بعد عزل واليه واليا آخر هو موسى بن مصعب بن الربيع الخشعمى (١٦٧ - ١٦٨ هـ) فأرسل الوالى جيشا مكونا من خمسة آلاف محارب بقيادة عبد الرحمن بن موسى ابن على بن رباح اللخمى ، الى الصعيد لمحاربة دحية • ومالبث هذا الوالى أن قتل فى ٧ من شوال سنة ١٦٨ هـ فى أثناء محاربته قيسا واليمنية الذين ثاروا ضده فى الحوف • ثم ولى مصر بعد مقتله عسامة بن عمرو الذى افتتح امرته بحرب دحية الأموى فى الصعيد، اذ أرسل عسامة الى دحية الجيوش بقيادة أخيه بكار بن عمرو ، فحارب يوسف بن نصير الذى كان على مقدمة جيش دحية ، وعاد الجيشان دون أن يحدث بينهما ما يستحق الذكر • وبعد ذلك بأيام يسيرة ورد الخبر بعزل عسامة عن ولاية مصر وتولية الفضل بن صالح بن على العباسى عليها آخر المحرم سنة ١٦٩ هـ • وكان أمامه قبل كل شىء أن يقضى على دحية الذى تفاقم خطره وبايعه كثير من الناس حتى كاتبه البعض ودعوه الى دخول الفسطاط •

أتى الفضل الى مصر ومعه جيوش من الشام استخدمها فى قتال دحية فى بويط (بالقرب من ديروط) ، وتقهقر أصحاب دحية

أمام جيوش الفضل ، ثم توجه دحية وعلى رأس حامية من جنده الى الواحات فبعث الى أهلها ـ وكانوا من المسالمة (١) والبربر الذين يدينون بمذهب الخوارج ـ يدعوهم الى القيام معه فأبوا أن يقاتلوا معه حتى يتبين لهم أنه يدين بمذهبهم .. ، فأجابهم بأنه على مذهبهم ، فخرجوا اليه وقاتلوا معه فى معركة عرفت باسم « يوم الدير » وأرسل اليه الفضل بن صالح جيشا كبيرا بقيادة عبد الله ابن على ، فخرج اليه دحية فى أهل الواحات فهزم عبد الله بن على وقتل يومئذ حفيد من أحفاد عبد العزيز بن مروان اسمه عبد العزيز ابن مروان بن الأصبغ . على أن أهل الواحات ما لبثوا أن تخلوا عن دحية لايثاره العرب على الموالى وتقديمهم على البربر ، كما أنه لم يرض بأن يتبرأ من عثمان فتبين لهم أنه على غير مذهب الخوارج فتركوه وانصرفوا عنه . فلما علم عبد الله بن على بانصرافهم عنه أتى ثانية لمحاربة دحية فقتل يومئذ حفيد آخر من أحفاد عبد العزيز ابن مروان اسمه مروان بن عبد الملك بن أبى بكر بن عبد العزيز ابن مروان . وانتهى الأمر بأسر دحية وأتى به الى الفسطاط فضرب الفضل عنقه وصلب جثته وبعث برأسه الى الخليفة الهادى وكان قتله فى جمادى الآخرة سنة ١٦٩ هـ . وكان القضاء على دحية الأموى معناه انتهاء أولى المحاولات وآخرها من جانب الأمويين فى مصر لاسترداد الخلافة . على أنهم بعد ذلك كانوا أحيانا ينضمون الى الثائرين على الخلافة العباسية من العلويين وذلك رغبة فى الكيد للدولة العباسية التى أزالت خلافة الأمويين .

وهكذا نرى أن أسرة عبد العزيز بن مروان تمصرت ولم ترض بمصر بديلا ، كما أنه كان لها شعبية قوية بين المصريين الذين رحبوا بهم ولم ينسوا ذكر جدهم عبد العزيز بن مروان .

---

(١) المسالمة : لفظ كان يطلق على الاقباط ، أو من يسلم حديثا من الاقباط أو اليهود .

الفصل الثاني عشر

عبد العزيز بن مروان ومشكلة ولاية العهد

صفات عبد العزيز بن مروان وأخلاقه :

مر بنا أن عبد العزيز بن مروان لم يترك المدينة ولا الحجاز منذ مولده الا قبل مجيئه أميرا على مصر بسنة واحدة حين هاجر مع والده مروان بن الحكم والأسرة المروانية من الحجاز الى الشام فى سنة ٦٤ هـ · أى أن عبد العزيز بن مروان عاش طفولته وشبابه ورجولته حتى بلغ نحو الاربعين من عمره فى المدينة · وكانت المدينة حتى أوائل خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، مدرسة للفقه الاسلامى ولعلوم العربية و'لسياسة والادارة العربية · وكان مروان ابن الحكم والد عبد العزيز من رجال الاسلام الأولين ومن الصف الاول من التابعين كذلك · اشتهر مروان بالشجاعة والفصاحة فضلا على أنه كان مستشارا للخليفة عثمان بن عفان كما كان واليا على المدينة والحجاز زمن معاوية · وعنى مروان بن الحكم بتنشئة أولاده تنشئة عربية اسلامية صحيحة وكان هو نفسه خير معلم لهم وخير مثل أمامهم · لهذا لا نعجب اذ نرى عبد الملك بن مروان حين يتولى خلافة المسلمين بعد أبيه مروان بن الحكم يعيد للامة العربية وحدتها وهيبتها ويستكمل مقومات عروبتها · ولا نعجب أيضا اذ نرى اسم عبد العزيز بن مروان يلمع فى مصر وغربى العالم الاسلامى ولا نعجب اذ نرى عبد العزيز بن مروان ينجح نجاحا كبيرا فى حكمه لمصر ·

والحق أن أسرة مروان بن الحكم كانت خير مثل للاسرة العربية التى تلتف حول عميدها وتهتدى بهديه وتحتذى حذوه ·

ويظهر اسم عبد العزيز بن مروان فى التاريخ حين يحارب مع

أبيه مروان بن الحكم في موقعة مرج راهط التى حددت مصير مروان ابن الحكم السياسى وأكدت خلافته بعد أن بويع خليفة فى الجابيه في سنة ٦٤ هـ ٠

وحين يبدأ مروان بن الحكم فى لم شمل الدولة العربية وجمعها تحت خلافته بعد أن يوحد الشام تحت حكمه ، يشرك ابنه عبد العزيز في اخضاع مصر للخلافة الاموية ٠ وكانت مصر آنئذ يليها عبد الرحمن بن جحدم من قبل عبد الله بن الزبير ٠ ولم تكن مهمة استخلاص مصر من عامل ابن الزبير مهمة سهلة اذ كان ابن جحدم صعب المراس قويا ، وحين علم بقدوم مروان بن الحكم من الشام وقدوم ابنه عبد العزيز من العقبة نحو مصر أرسل الجيوش برا وبحرا لتمنع مجيئهم الى مصر كما مر بنا ، كما بنى خندقا حول الفسطاط ٠ لكن عبد العزيز بن مروان لم تخنه شجاعته بل انه أظهر شجاعة وبسالة فى العقبة حين حارب جيش ابن جحدم الذى أرسله الى هناك بقيادة زهير بن قيس البلوى ٠

كذلك مر بنا أن عبد العزيز بن مروان اشترك مع أبيه مروان في القضاء على حكم ابن الزبير فى مصر وذلك بالانتصار على ابن جحدم ودخولهما الفسطاط فى غرة جمادى الاولى سنة ٦٥هـ ٠

ومر بنا أن ولاية عبد العزيز بن مروان فى مصر بدأت بعد مغادرة أبيه مروان بن الحكم لها وذلك فى أول رجب سنة ٦٥هـ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى وفاته في الثالث عشر من جمادي الاولى سنة ٨٦ هـ ، ظل عبد العزيز بن مروان الامير الشجاع الذى لا يتوانى لحظة فى الدفاع عن الخلافة الاموية وفى الدفاع عن مصر وفى الاشراف على الجيوش والأساطيل التى تخرج منها فى خدمة الخلافة العربية ٠ ونراه يعاون الخلافة فى القضاء نهائيا على عبد الله بن الزبير كما مر بنا قبل ذلك اذ أرسل حملة بحرية الى مكة فى سنة ٧٢ هـ لقتال عبد الله بن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل ٠ ولا

ننسى فى هذه المناسبة أن موقع مصر كان حيويا جدا بالنسبة لمشروعات الخلافة الحربية فضلا على أن الخلافة حينئذ كانت تعانى بقايا التصدع الداخلى الذى بدأ منذ خلافة يزيد بن معاوية • وكان الروم ينتهزون الفرص للاغارة على سواحل الشام أو سواحل مصر. وكان على مصر أن تحمى حدودها الغربية وأن تكمل فتح شمالى افريقية وتحريره من سلطان الروم • ولا ننسى أيضا أن حدود مصر الجنوبية كانت تتطلب السهر دائما على حمايتها • ولهذا لم تكن مهمة عبد العزيز بن مروان سهلة فى مصر ، بل كان عليه وهو أميرها والقائد الأعلى لجيوشها وأساطيلها أن تكون عيناه ساهرتين وألا تخونه شجاعته فى أى موقف من المواقف الدقيقة ، فان مصر لم تكن تعيش لنفسها فحسب ولكنها كانت تعيش لنفسها وللدولة العربية جميعها • وأثبتت الحوادث أن عبد العزيز بن مروان كان شجاعا دائما لا يخشى أى موقف مهما كانت خطورته أو دقته واتضحت تلك الصفة فيه منذ دخوله مصر فلم يدخلها مثل أى أمير عادى ولكنه دخلها محاربا على رأس جيش ليحافظ على وحدة الدولة العربية من التصدع •

ومر بنا أن عبد العزيز بن مروان أدرك خطورة مهمته فى مصر منذ أن سلمها له أبوه مروان بن الحكم ولهذا لم يخف مشاعره على أبيه ، ولم يكن من أبيه الا أن شجعه ورسم له الطريق السوى الذى يسير عليه كما مر بنا فى صفحات هذا الكتاب • ولم تكن المسألة مجرد كلام ونصائح من مروان لابنه عبد العزيز لكنها تذكير بأمور شب عليها عبد العزيز وتعلمها من خير معلم حتى سلمه زمام الامور فى مصر وتركه الى مقر خلافته فى دمشق • ولم تتطور شجاعة عبد العزيز بن مروان الى تهور أو الى قسوة فى أى وقت من الاوقات• ومر بنا أنه حين حضر مقتل عمرو بن سعيد بن العاص فى دمشق كان له فضل كبير فى كبح جماح أخيه الخليفة عبد الملك بن مروان•

كما انه لم يستطع أن يقتل عمرو بن سعيد بن العاص بالرغم من أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بذلك ·

كذلك اشتهر عبد العزيز بن مروان بالحزم وحسن الادارة ولهذا استطاع أن ينهض بجميع المرافق فى مصر واستطاع أن يصلح وأن يطور البلاد وأن يرفع مستواها كما بذل مجهودات جبارة لتعريبها ·

وكان من أهم صفات عبد العزيز بن مروان التسامح مع أهل الذمة فى مصر والعطف عليهم والاعتماد عليهم فى حكم البلاد · وكان والى الصعيد فى نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان قبطيا اسمه بطرس كما كان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوفانس ·

ومر بنا أن عهد عبد العزيز بن مروان تميز ببناء الكنائس الكثيرة وخاصة فى الفسطاط وفى حلوان كما جدد بناء كنائس كثيرة فى امارته ·

واشتهر عبد العزيز بن مروان بالورع والتقوى ولم تلهه مشاغل الدنيا أو زخرفها عن التمسك بدينه أو مجالسة الفقهاء والعلماء حتى كان مجلس عبد العزيز ندوة للفقهاء والعلماء والادباء· ولعل أحسن ما قيل فى عبد العزيز فى هذه المناسبة ما قاله الشاعر جرير فيه :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه
ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله(١)

وكانت أهم صفة امتاز بها عبد العزيز بن مروان هى كرمه الحاتمى الذى سجله الرواة والمؤرخون والذى تغنى به الشعراء المصريون والشعراء العرب بوجه عام · وكان عبد العزيز بن مروان يقول : « واعجبا من مؤمن يوقن أن الله يرزقه ، ويوقن أن الله

(١) التنوخى (ابو على المحسن بن على) : المستجاد من فعلات الاجواد ص ٢٤٩ (نشر وتحقيق محمد كرد على — دمشق ١٩٤٦) ·

يخلف عليه ، كيف يدخر مالا عن عظيم أجر أو حسن سماع (١) »
ويقال انه كان لعبد العزيز بن مروان ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره ، وكانت له مائة جفنة تحمل على العجل ويطاف بها على قبائل مصر . وفى ذلك يقول الشاعر :

كل يوم كأنه يوم أضحى
عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات
كل يوم تمدها ألف قدر

وفى ذلك المعنى أيضا ما قاله ابن قيس الرقيات :

ذاك ابن ليلى عبد العزيز ببا
ب اليون تغدو جفانه رذما

ولا ريب أن مثل هذا الشعر وغيره يشهد بما كان له من جود وافر على ما فيه من مبالغة صريحة ليست غريبة عند المؤرخين المسلمين أو المؤرخين فى العصور الوسطى عامة .

وبالرغم من أن عبد العزيز بن مروان كان يحكم فى مصر كأنه ملك أو خليفة مستقل ، وبالرغم من أنه كان يتصرف فى أموال مصر كيفما شاء وبالرغم من أنه حكم مدة طويلة فانه لم يتخذ ذلك ذريعة لكى يكنز الأموال ويتصرف فيها بغير حساب وقد ذكر المؤرخون ان عبد العزيز لم يترك بعد وفاته الا سبعة آلاف دينار ، وقيل أيضا ان عبد العزيز لم يترك بعد موته الا حلوان ، والقيسارية، وثيابا كان بعضها مرقوعا ، وخيلا ورقيقا .

---

(١) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٥ .

الفصل الحادي عشر

عبد العزيز بن مروان ومشكلة ولاية العهد

عبد العزيز بن مروان ومشكلة ولاية العهد :

مر بنا أن الصراع حول الخلافة اشتد منـذ تولية يزيد بن معاوية الخلافة ثم اندلعت الفتنة الثانية فى التاريخ الاسلامى بعد أن ترك معاوية الثانى ابن يزيد الحكم • ولم يقتصر الصراع حول الخلافة بين المبدأ الانتخابى ، وبين مبدأ الوراثة المباشر من الأب الى الابن فحسب ، بل ظهر مبدأ ثالث وهو المبدأ القبلى الذى يعترف بسيادة القبيلة ويختار أكبر أفرادها سنا وأكثرهم خدمة وشجاعة وحنكة• وكانت رغبة الأسرة الأموية وأهل الشام عامة أن تبقى الخلافة أموية• وهكذا انتخب مروان بن الحاكم فى الجابية فى الشام سنة ٦٤ هـ على أساس أنه من البيت الأموى ، وعلى أساس قبلى لسنه وخبرته • ومع ذلك فان مبدأ الوراثة لم يهمل ، اذ تذكر المصادر القديمة أنه بويع لمروان بن الحاكم فى الجابية ، ثم لخالد بن يزيد بن معاوية ، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق •

لكن مروان بن الحاكم ، بعد أن تولى الخلافة ، رجع الى نظام الوراثة من الأب الى الابن ، فحين عاد منتصرا من مصر وشعر أن الأمور بدأت تستقر عقـد البيعة من بعـــده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز •

وقد تكون البيعة لابنيه ليست مجرد رغبة شخصية فحسب أو خطئا ، وانما كانت هذه البيعة ضرورة سياسية اقتضاها حرص المروانيين على عدم خروج الخلافة من أيديهم كما خرجت من الفـرع السفيانى الأموى ، ولتجنب الاضطرابات التى قد تنشأ عن كثرة

الطامعين فى الخلافة ، أو التى تنجم عن آراء مثل آراء معاوية الثانى • ولكننا سنرى أن هذه السنة فى انتخاب الخلفاء ستزيد فى مشكلات بنى أمية ، وسيعمل عبد الملك بن مروان على أن يحصل على ولاية العهد لأبنائه وأن ينحي عنها عبد العزيز بن مروان ، وسيعمل خلفاء عبد الملك أيضا على أن يحصلوا على ولاية العهد لأبنائهم وأن ينحوا عنها اخوتهم وأقاربهم • وسوف يأخذ العباسيون بعد ذلك بالسنة التى بدأها مروان بن الحكم وهى تولية العهد لأكثر من واحـــد •

وتذكر المصادر أنه حينما أراد عبد الملك بن مروان خلع أخيه وولى عهـده عبد العزيز بن مروان ، شجعه على ذلك الحجـاج بن يوسف الثقفى ، بل ان المصادر تذكر أن الحجاج هو الذى كتب الى عبد الملك يزين له أخذ البيعة لابنه الوليد • ويقال ان عبـد الملك ابن مروان استشار فى ذلك الأمر رجلا من أجل الناس عنده هو روح بن زنباع الجذامى ، فكان رد روح : « لو خلعته ما انتطح فيه عنزان » •

ويظهر أن رغبة عبد الملك فى تنحية عبد العزيز بن مروان عن ولاية العهـــد لم تكن صريحة الا فى أخريات حيـاته وحياة عبـد العزيز • لكن عبـد العزيز لم يأخذ المسألة « ببساطة » بل تمسك بحقه فى ولاية العهد • ويذكر الطبرى أن الخليفة عبد الملك حـين أراد خلع أخيـه عبـد العزيز من ولاية العهـد كتب اليه عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين انى واياك قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك الا كان بقاؤه قليلا ، وانى لا أدرى ولا تدرى أينا يأتيه الموت ، فان رأيت ألا تغثث على بقية عمرى فافعل » •

ويذكر الكندى أن عبد العزيز رفض أن يتنازل عن ولاية العهد للوليد وسليمان ابنى عبد الملك ، وكتب عبد العزيز الى عبد الملك يقول : : « ان يكن لك ولد فلنا أولاد ويقضى الله بما يشاء » •

ويقال انه كان فى كتاب عبد العزيز الى عبد الملك :

« انك لو رأيت الأصبغ لسرك ولم تقدم عليه أحدا » .

وتذكر بعض الروايات أن عبد الملك خلع عبد العزيز من ولاية العهد وبايع من بعده لابنيه الوليد ثم سليمان .

وتذهب روايات الى أن عبد العزيز بن مروان سقى سما . وتذكر روايات أخرى انه بينا عبد الملك يفكر فى هذا الأمر جاءه الخبر بوفاة أخيه عبد العزيز بن مروان .

ونحن نرجح أنه لا الوعد ولا الوعيد أجديا مع عبد العزيز ابن مروان كى يعدل عن حقه فى الخلافة ، لكن الذى حدث أنه مات قبل عبد الملك ، فاستطاع عبد الملك أن ينفذ ما أراد وبايع لابنيه الوليد ثم سليمان .

دكتورة

سيدة اسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الاسلامى

كلية البنات ـ جامعة عين شمس

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على ادهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القادر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	امين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسن الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الاصمعى	د . احمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا احمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب ارسلان	احمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى

اسم الكتاب	المؤلف
٢٥ ــ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ــ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ــ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ــ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ــ احمد زكى	أنور الجندى
٣٠ ــ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ــ المثنى بن حارثة الشيبانى ..	عقيد : محمد فرج
٣٢ ــ مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر احمد
٣٣ ــ رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ــ اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ــ ابو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ــ ابن المعتز العباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ــ الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ــ أبو العلاء المعرى	د . ماهر حسن فهمى
٣٩ ــ أحمد لطفى السيد	د . عائشه عبد الرحمن
٤٠ ــ الجوينى امام الحرمين	د . حسين فوزى النجار
٤١ ــ صلاح الدين الايوبى	د . فوقيه حسين
٤٢ ــ عبد الله فكرى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٣ ــ عبد الله بن الزبير	محمد عبد الغنى حسن
٤٤ ــ عبد العزيز جاويش	د . على حسنى الخربوطلى
٤٥ ــ ابن رشيد القيروانى	أنور الجندى
٤٦ ــ محمد عبد الملك الزيات	عبد الرءوف مخلوف
٤٧ ــ حفنى ناصف	محمود خالد الهجرسى
٤٨ ــ أحمد بن طولون	محمود غنيم
٤٩ ــ محمد حمدى الفلكى	د . سيدة اسماعيل الكاشف
٥٠ ــ أحمد فارس الشدياق	أحمد سعيد الدمرداش
٥١ ــ المهدى العباسى	د . على حسن الخربوطلى
٥٢ ــ الاشرف قانصوه الغورى	د . محمود رزق سليم
٥٣ ــ رفاعه الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ــ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى

٢٠٠٤

اسم الكتاب	المؤلف
٥٥ ـ الكندى (المؤرخ)	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الاندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد احمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	د . محمد مصطفى هداره
٦٠ ـ المقــرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الافغــانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحــظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	د . أنور عبد العليم
٦٤ ـ محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ـ محمود سامى البــارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ ـ ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ ـ عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ ـ موسى بن نصــير	د . ابراهيم أحمد العدوى
٦٩ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

ملتزم التوزيع
في الجمهورية العربية المتحدة وجميع انحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ ـ فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢ القاهرة
٢ ـ فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٣ القاهرة
٣ ـ فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٦٣٨٣ القاهرة
٤ ـ فرع المبتديان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧ القاهرة
٥ ـ فرع الجمهورية	٣٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٧ القاهرة
٦ ـ فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣ القاهرة
٧ ـ فرع الحسين	ميدان الحسين	القاهرة
٨ ـ فرع الجيزة	٢ ميدان الجيزة	٨٩٨٣١١ القاهرة
٩ ـ فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠ أسوان
١٠ ـ فرع الاسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥ الاسكندرية
١١ ـ فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٩٤ طنطا
١٢ ـ فرع المنصورة	ميدان المحطة	المنصورة
١٣ ـ فرع أسيوط	شارع الجمهورية	أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ ـ مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ ـ مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ ـ مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ ـ عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ آيار ـ دمشق	سوريا
٥ ـ الشركة العربية للتوزيع	ص . ب رقم ٤٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ ـ قاسم الرجب	مكتبة المثنى ـ بغداد	العراق
٧ ـ رجا العيسى	وكالة التوزيع ـ عمان	الأردن
٨ ـ عبد العزيز العيسى	منار للتوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ ـ وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ ـ مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص ـ ليبيا	بنغازي
١١ ـ محمد بشير الفرجاني	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ ـ الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ ـ وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عدن
١٤ ـ المكتبة الوطنية	المنامة ـ الخليج العربي	البحرين
١٥ ـ مكتبة العروبة	ص.ب ٤٢ و ٩٤	الدوحة
١٦ ـ عبد الله حسين الرستماني	المكتبة الأهلية ص.ب ٣٦١	دبي/عمان
١٧ ـ المكتبة الحديثة	ص . ب ٢٧	مسقط
١٨ ـ أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ ـ مكتبة دار القلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ ـ علي ابراهيم يشير	ص . ب ٨٢	أسمرة
٢١ ـ عبد الله قاسم الحرازي	ص . ب ١٧١٤	اديس ابابا
٢٢ ـ مكتبة ستر	ص . ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ ـ عبد الله غالب محمد	ص . ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ ـ مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ ـ المكتب التجاري الشرقي	٤٠ ش كندهار ص . ب ٢٢٠٥	سنغافورة
٢٦ ـ مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ ـ مكتبة الفجر		وادي مدني
٢٨ ـ زكي جرجس بطليوس	ص.ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ ـ ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص.ب ٤٨٠	بور سودان
٣٠ ـ عوض الله محمود دبورة	مكتبة دبورة ص.ب ٢٤	عطبرة
٣١ ـ عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ٢٤٥	وادي مدني
٣٢ ـ مصطفى صالح	ص.ب ٤٤	كوستي

أسعار البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ١٠٠ قرش سوري ـ لبنان ١٠٠ قرش لبناني ـ الأردن ١٠٠ فلس ـ العراق ١٠٠ فلس ـ الكويت ١٢٠ فلس ـ السودان ١٠٠ مليم ـ ليبيا ١٠٠ مليم ـ قطر ١٥٠ درهم ـ البحرين ١٥٠ فلس ـ عدن ٢٠٠ سنت ـ أديس أبابا ١٠٠ سنت ـ أسمرة ١٠٠ سنت ـ الجزائر ١٥٠ سنتيم